■ الباب الثالث ■

«نظام الملك» وزير السلاجقة الأوائل

تكوين شخصيته وصلاته :

تمهيد : *المنطقة التي تربى وعاش فيها.*

الفصل الأول : *ميلاده، أسطورة تسميته، نسبه ونسبته. مراحل دراسته، ألوان ثقافته، مجلسه وفن المناظرة، عقيدته الدينية، نفسيته وخلقه.*

الفصل الثاني : *استيزاره ومراسيم وزارته، علاقة السلاطين السلاجقة بالخلفاء ومدى علاقة «النظام» بهم ، موقفه من الألقاب.*

الفصل الثالث : *قصة الثالوث مع زميليه ـ عمر الخيّام والحسن بن الصبّاح ـ وأسباب الخلاف بينهما. رسالة تاريخية مهمّة بين الصبّاح والسلطان ملكشاه.*

obeikandi.com

obeikandl.com

تمهيـــد: (المنطقة التي تربّى وعاش فيها «نظام الملك»):

تلك هى خلاصة الظواهر المادية والعقلية لنواحى الحياة الاجتماعية فى عصر وزيرنا «النظام» ومن غير شك أنها ستلقى على نفوس أحيائه الكبيرة أعباء تنوء تحتها أجسامهم وأثقالاً ترزح لها أعناقهم[1].. وبقى علينا أن نتحدث عن البيئة الضيقة التى كان يحيا فيها ويعيش فوق أرضها ويتنقل بين ربوعها وأنحائهاالقريبة والنائية مادامت مركزًا للعلم والتعلم.

ومهما قيل عن تفاعل الإنسان والبيئة واختلف فى مداه فإنه لا يوجد بين الدارسين من يذهب إلى عدم تأثر الإنسان فى بيئته، بل نجد من يغالى فى هذا التأثير حتى ليجعله وليدها ونتاج ما يحيط به من ظواهرها.. متجاهلاً ما في الإنسان من طاقات واعية تتفاعل مع قوى الطبيعة العمياء حتى ليسخرها أحيانًا بل غالبًا، وبخاصة ما نشهده من صنع عظماء العصور سواءٌ أكانوا فى العلوم أم الفنون أم السياسة، فإنهم ـ ولاريب ـ طائفة تمردت على البيئة ونظم العيش فيها، وأملوا على الناس فى ثقة وإيمان ما امتلأت به عقولهم وأفئدتهم من آمال وأهداف إلى أن استجابت لهواتفهم نفوس الخلق ولانت لمطالبهم ظروف الحياة.. لأن سيرة هؤلاء ـ كما نقرؤها ـ كتاب حافل بالمفاجآت، زاخر بالمغامرات، يفيض على المجتمع من تعاليمه وتوجيهاته أضعاف ما يأخذ منه، ويؤثر على سير أهله أمثال ما يتأثر به.

ومهما أجيز لنا القول بذلك الوجود الذى له مسوّغاته وشواهد إثباته بالنسبة

---

(١) كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعبت في مرامها الأجسام

لتلك الفئة التى لا تجود بها الطبيعة إلاّ نادرًا، فإنه ـ ولاشك ـ لا يصحّ تناسى ما للبيئة من تأثير على الأحياء بشكل عام يختلف باختلاف مداركهم وسعة وعمق ثقافتهم.

لذلك رأينا من الضرورى أن نـتكمل ما أسلفنا من نواحى الحياة بإلمامة قصيرة عن البيئة الضيّقة التى عاش فيها «النظام» والأحوال الطبيعية التى عرفت بها؛ لاعتقادنا بأن هذه الناحية ـ أيضًا ـ لاتقل أثرًا عن سابقتها فى مقوّمات شخصيته، وظواهر سلوكه وانفعالاته.

قليلات هى القصبات اللواتى أنجبت من الرجال أبطالاً، وأسـهمت فى بناء صروح شامخة لدول جديدة.. وأقل منها حواضر عرفت أشخاصًا شاركوا فى تاريخ الفكر الإنسانى وحضارته فاشتهرت بهم مثلما اشتهروا بهـا.. ومن تلك، وهـذه.. قصبة خراسـان ـ وبمنزلة القلب منها مدينة ـ طوس ـ كما كانت نيسابور ـ تمثل رأسها المفكر وعقلها المدبّر.. ففى «طوس» ولد «نظام الملك» الوزير السـلجوقى، وفى «نيسابور» حاضرة هذا الاقليم الواسع تلقى العلم على يد ـ الإمام الموفق هبة اللّه النيسابورى، وإلى ـ بلخ ـ من بلاد ما وراء النهر رحل فى طلب المزيد منه.. فكان لزامًا علينا أن نلمّ بأطراف الحديث عن هذه المدن الثلاث ليس لأنها منبت «النظام» ومغناه الذى درج فيه وشبّ حتى استشهد فحـب، وإنما لأنها من المراكز الحضارية التى كانت تنافس بغداد ودمشق والقاهرة فى مدارسها وعلمائها وأدبائها أيضًا.

لقد رسمت الطبيعة بقلمها خطًا فاصلاً بين إقليم خراسان وبلاد الهياطلة ذلك هو نهر «جيحـون» ولكنّها فرضت عليهما جوًا متشابهًا فى أمطاره ورياحه ومناخًا متقاربًا فى درجة حرارته ورطوبته، فجاء أهلها ذوى بأس وقوة، وهم مع ذلك أحسن طاعة لكبرائهم وألطف خدمة لعظمائهم[1]، كأنهم أبناء بلد واحدة على الرغم من الحد الطبيعى بينهما.

وكانت «بخارى» و «بلخ» فى الضفة الشرقية لهذا النهر بمنزلة «نيسابور»

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة ما وراء النهر، ومادة خراسان.

و«طوس» من إقليم «خراسان» الواقعة غربيه، وقد وصف «ابن الفقيه» مناخ هذا الإقليم فقال: «خراسان طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة التربة، عذبة الثمرة وأهلها فى إحكام الصنعة وتمام الخلقة وطول القامة وحسن الوجوه، وسكّانه أهل نجابة وحكم وعلم وفقه»[١]..

لقد كان إقليم خراسان حتى مستهل القرن الخامس الهجرى من أكبر الولايات التابعة للخلافة العباسية رقعة، وأكثرها لخزانة الدولة موردًا[٢]. . فقد ضم إليها ـ البلاذرى ـ بلاد ما وراء النهر[٣] التى تقع فى الشمال الشرقى منها، وجعل حدودها صحراء الصين وجبال البامير وهندوكش. . غير أن ـ ياقوت ـ أخرج منها هذا القسم وعلّل لوجود هذا الاختلاف الذى وقع فيه ـ البلاذرى ـ بدخولهما تحت إمارة واحدة[٤].

ولعلّ سعة هذا الإقليم من العوامل التى دفعت بالحكام إلى تقسيمه إلى أربعة أقسام. . كانت ـ نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ ـ هى حواضر تلك الأرباع بصورة منفردة أو مجتمعة فى فترات مختلفة[٥]. . ثم يضيف «السبكى» إلى ما ذكره نحو المدائن الأربعة لخراسان قوله: «هذه مدنها العظام، ولا ملام عليك لو قلت بل هى مدن الإسلام، إذ كانت دار العلم على اختلاف فنونه والملك والوزارة على عظمتها إذ ذاك»[٦].

---

(١) ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان ص ٣١٦.

(٢) حتى قيل: إن دخل هذا الإقليم بلغ ٣٧ مليون درهم (دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص٢٨٣. . عن ابن الفقيه ـ مختصر كتاب البلدان).

(٣) وهو جيحون ـ وما كان فى شرقيه يقال له بلاد ــ الهياطلة ـ وما كان فى غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم، ومن حدود خوارزم إلى اسبيجاب فهم الترك الغزية. والسلاجقة ـ كما هو معروف لدى المؤرخين ـ من هؤلاء الغز. (معجم البلدان ـ مادة ما وراء النهر).

(٤) ياقوت معجم البلدان ـ مادة خراسان جـ ٣ ص ٤١٣.

(٥) لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٢٤.

(٦) السبكى ـ الطبقات جـ ١ ص ١٧٣ ـ مادة نيسابور.

وكان لنيسابور النصيب الأوفر من الاهتمام والشهرة السياسية فضلاً عن العلمية، نظرًا لموقعها الجغرافى الحصين، ومركزها التجارى الخطير.. حتى وصفها ياقوت بأنها: «دهليز المشرق ولابد للقوافل من ورودها»[١].. وقال عنها السبكى: «بأنها لم يكن بعد ـ بغداد ـ مثلها، وقد عمل لها ـ الحافظ أبو عبد اللّه الحاكم ـ تاريخًا تخضع له جهابذة الحفّاظ وهو عندى سيد التواريخ»[٢].

وقد حافظت على مكانتها منذ الفتح الإسلامى لها عام ٣١هـ، حيث اتخذ منها بعض الخلفاء الأمويين، والعباسيين موطنًا لضرب النقود كما اتخذها الأمراء الطاهريون عاصمة للإقليم خلال حكمهم ويعتبر ـ عبد اللّه بن طاهر ـ المنظّم الأول لبلاد خراسان[٣] ومنها نيسابور طبعًا.

ونيسابور ـ كما وصفها «ابن حوقل» ـ «بأنها ليس فى جميع قراها مدينة أصحّ منها هواء وأفسح فضاء وأكثر عمارة، وتجّارها أهل ثراء وتؤمها السابلة والقوافل كل يوم ويرتفع منها من أصناف ثياب القطن والإبريسم ما ينقل إلى سائر البلدان»[٤].

وعلى بضعة أميال شرق نيسابور تقع «طوس» وقد قدّرها كتّاب البلدان والمسالك بنحو عشرة فراسخ[٥].. وكانت تشمل بلدتين تسمى الأولى الطابران والثانية نوقان، يتبعهما أكثر من ألف قرية[٦]. ومن أكبر هذه القرى ـ راذكان ـ التى سنشير إليها وإلى نوقان ـ بصفة خاصة فى الفصل القابل.

---

(١) المعجم ـ مادة نيسابور.

(٢) السبكى ـ الطبقات ـ مادة نيسابور.

(٣) بارتولد ـ عن اليعقوبى جـ ١١ ص ٥٨٦.

(٤) هكذا ذكر ابن حوقل ص ٣١٠-٣١٢، وأيده المقدسى أيضا ص ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٩.

(٥) معجم البلدان ـ مادة طوس ـ مراصد الاطلاع جـ ٧ ص ٢١٥.

(٦) من المراجع ابن السمعانى فى أنسابه ورقة ٣٧٣، وابن الأثير فى اللباب فى تهذيب الأنصاب جـ ٢ ص ٩٢.

والذى تدلّنا عليه النقول أن طوس، كانت المدينة الثانية فى ربع نيسابور[1] وظلت تنمو وتنافس نيسابور خلال القرن الرابع الهجرى.. وبلغت الأوجّ فى منزلتها السياسية والعلمية فى القرن الخامس واستمرت فى نموها إلى أن غزاها جيش المغول فخرّب عمارتها وأفنى ساكنيها فى بداية المائة السادسة حتى لم يبق فيها جداراً قائمًا كما ذكر ياقوت سنة ٦١٧هـ[2].

وقد أنجبت هذه المدينة من العلماء والشعراء والوزراء عددًا كبيراً عبّر عنه ياقوت ـ بأنه لا يحصى.. مبالغة فى كثرة الأئمة من الفقهاء المنسوبين إليها وفى مقدمة ذلك العدد الوفير: أبو حامد الغزالى، وأبو القاسم الحسن الفردوسى المتوفى سنة ٤١١هـ، وأبو على نظام الملك، الذين جمعهم الشاعر الفارسى فى هذا البيت[3]:

هر وزير ومنشى وشاعر كى طوسى بُوَدْ جون نظام الملك وغزّالى وفردوسى بُودُ

وربما كان ضريح الإمام ـ على بن موسى الرضا ـ سابع الأئمة عند الشيعة، الإمامية الاثنى عشرية أقوى حافز لتجمّع الشيعة من العرب والفرس فى هذا الموضع المقدّس وتعاونهم على إعادة عمرانه بشكل أفخم مما كان عليه قبل تخريب المغول السالف الذكر له.

* * *

(١) لسترنج ـ بلدان الخلافة ص ٤٣٠.

(٢) ياقوت ـ المعجم ـ مادة طوس.

(٣) شمس الدين محمد بن قيس الرازى. المعجم فى معايير أشعار العجم ص ٣٢٩.

obeikandl.com

● الفصل الأول

تكوين شخصية «نظام الملك» الوزير

- ميلاده ، ونسبته ، وأسطورة تسميته.
- نشأته وتعلمه، و بدء صلته بالصوفية.
- ألوان ثقافته ومنابعها ، ومراحلها
- مجلس «نظام الملك» والعلماء والشعراء والمتناظرون والصوفيّون من روّاده.
- عقيدته الدينيّة ، نفسيته وخُلُقه.

obeikandl.com

obeikandl.com

ميلاد «نظام الملك» ونسبه ونسبته:

والذى نتوخاه من حياة «النظام» ناحيتها الدائبة، ناحية نشاطه فى سبيل مجتمع أفضل، كما يعتقد هو، ويعتقد الناس آنذاك.. وقد حاولت تلمس هذا الجانب من سيرته وتصويره قدر المستطاع، إذ سجل التاريخ له فى هذا المجال صفحة خالدة كتبها بمداد من سعيه المتواصل لنشر العلم ومبادئ الإسلام، وبثّ روح الإيمان باللّه واليوم الآخر فى نفوس الحاكمين والمحكومين ليشيع العدل، وتعمّ المساواة بين أفراد المجتمع.

وقد نهج لذلك سياسة أصبحت واضحة المعالم بيّنة الحدود بعد دراستنا له، وسيبقى هدفنا الذى نبتغى الوصول إليه والكشف عنه، لذا لا نعرض لترجمته الرتيبة الزمنية إلاّ بمقدار ما لها من علاقة فى حياته السياسية أو بما ستلقيه من ضوء على غامض جوانبها أو لبيان حادث وقع له ذى صلة بها.

والمرء إذا ما عُرف وذاع صيته وهو لمّا يزل حيّا يرزق.. كان الاختلاف فى نسبه ونسبته وتاريخ ميلاده ونشأته ومماته قليلاً وقد ينعدم فى بعضها عادة، ولكن أقلام النسّاخ التى شطح بها الجهل أحيانًا والتعصب المذهبى أخرى وضعف الوازع لتتبع الأحداث قبل الحكم عليها فضلاً عن صعوبة المواصلات وغلاء أدوات النسخ والنقل، كل تلك العوامل لم تبق سيرة أو حادثة خالية من نقص أو تشويه يحتاج إلى بحث وتحقيق فى ضوء منهج علمى دقيق لتدوينها قريبة من الحقيقة إن لم تكن هى ذاتها.

وما كنّا نظن لأول وهلة أن سيرة كسيرة «النظام» على شهرته وكثرة الكاتبين عنه في حياته وبعد وفاته، وقد غمرت الخافقين سمعته، يشوب الاضطراب بعض جوانبها ويتطرق الجهل إلى شيء من أجزائها فيصل الخلاف إلى سنيّ ميلاده كما يشمل سلسلة نسبه ومهبط رأسه.

فقد قيل: إنه ولد يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة من سنة ٤٠٨هـ (١٠ أبريل سنة ١٠١٨م) وهو الذى تناقله معظم المؤرخين وخاصة العرب منهم.. وهناك من قال: إنه ولد سنة ٤١٠هـ[١].

وقيل فى اسمه: إنه الحسن بن على... وعليه جلّ كتّاب السير كما قيل: إنه الحسين بن على[٢]. وحكى فى نسبه: أنه الحسن بن على بن إسحق الطوسى وهو رأى الأكثرين[٣]، وروى: أنه الحسن بن على بن إسحق بن العباس الطوسى[٤].. ونقل فى الوصايا أنه من ناحية الوالد: الحسن بن على ابن أحمد بن إسحق الطوسى[٥]. ومن ناحية الوالدة فإن أمه ـ زمرّد خاتون ـ من آل حميد الدين الطوسى الذين كان أكثرهم وزراء فى دولة خلفاء دار الإسلام[٦].

وذكروا مثل هذا وذاك فى نسبته.. فقالوا: هو الحسن بن على الطوسى تارة

---

(١) ابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٦.

(٢) اليافعى ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٥.

(٣) الذهبى ـ دول الإسلام جـ ٢، وابن الأثير ـ الكامل جـ١ ص ٨٤ ـ ٨٦، والمقدسى ـ الروضتين جـ ١ ص ٢٥، وابن خلدون ـ العبر جـ ٥ ص١٣، وأبو الفداء ـ تاريخه جـ٢ ص ٢١٢، وأبو الفوارس الحسينى ـ أخباره ص ٦٦.

(٤) وقيل الحسن بن إسحق العباسى (ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٦).

(٥) وقيل الحسن بن إسحق الطوسى (ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١) وابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٦٤ ـ ٦٨ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، وابن خلكان ـ الوفيات جـ ١ ص ٣٩٥ ـ حوادث نفس العام، والسبكى جـ٣ ص ١٣٥، والخونسارى ـ الرضا جـ ١ ص ٣٢٢.

(٦) الوصايا ص ٦.

والراذكانى أخرى[1] والنوقانى ثالثة[2]. . ومنهم من نسبه إلى مهنة والده الأولى فقال عنه «الدهقانى». . وفى نسبته المكانية هذه ما يشير إلى الاختلاف فى موضع ولادته. . والذى نرجحه من تلك الأقوال أن ميلاده كان عام ٤٠٨هـ وأنه أبو على الحسن بن على بن إسحق الطوسى سواء أكان من قرية «راذكان» أو «نوقان» لأنهما من قرى طوس، وكما هو مشهور عند جمهور الباحثين وتؤيّده وقائع سيرته.

أسطورة تسميته:

وقد مهّد جامع «الوصايا» فى مقدمته لأسطورة تسميته «النظام» بخرافة لعلّها من نسج الخيال أو من غريب المصادفات. . فقد حكى أنه فى يوم ميلاد «النظام» سقط المطر على «طوس» بغزارة بعد انقطاع دام أربع سنوات فتفاءل الخلق بمولده[3].

وبعد مرور يومين على ميلاده رأت والدته فيما يرى النائم سيدة ذات مهابة وجلال تجلس على كرسى وبجانبها مصحف وتحتضن طفلاً، ولما سألت عنها قيل لها: إنها فاطمة الزهراء، فسلمت عليها وابتعدت عنها احترامًا لها وما أن رأتها من الصالحات حتى أذنت لها وأخذت ابنها وأرضعته مستفسرة عن اسمه وما أن عرفت أنه لم يسمّ بعد وأن اسم والده «على حسن» حتى قالت سمّيه «حسنا» كولدى لأن له أبًا اسمه على[4]. . وفى الصباح قصّت رؤياها على أبيه وأطلقت على مولودها ذلك الاسم.

وقد نقلت المصادر التاريخية رؤيا أخرى مثلها وإن اختلفت عنها من بعض

---

(١) قرية صغيرة بنواحى طوس قيل إن «النظام» كان قد ولد فيها (السمعانى ـ الأنساب ـ ورقة ٢٤٢).

(٢) إحدى قصبتى طوس وقيل بليدة خرج منها جماعة من أهل العلم (ياقوت ـ المعجم جـ٢ ص ٧٣٠) وابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٥.

(٣) الوصايا ص ٦.

(٤) الوصايا ص ٦، ٧.

الوجوه.. وليست من أجل التسمية وإنما فى سبيل التعلم.. فقد حكوا فى سيرة «الشريف المرتضى» المتوفى سنة ٤٣٦هـ أن الشيخ المفيد رأى فى حلمه فاطمة الزهراء داخلةً عليه وهو فى مسجده بالكرخ ومعها ولداها - الحسن والحسين - فأسلمتهما إليه وقالت علمهما الفقه.. فانتبه الشيخ عجبًا، فلمّا تعالى النهار صبيحة تلك الليلة دخلت عليه «فاطمة بنت الناصر»، وحولها جواريها وبين يديها ابناها «على المرتضى ومحمد الرضى» صغيرين فقام إليهما وسلّم عليهما فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداى قد أحضرتهما إليك لتعلّمهما الفقه فبكى وقصّ عليها الرؤيا»[١].

وسواء صحّت رؤيا الأم فى تسمية مولودها وصدقت المصادفات فى نزول الأمطار يوم ولادته، وتواردت الأحلام على شاكلة واحدة لتسلط النزعات الدينية على مشاعر الناس، وتقديسهم لائمتها.. فقد دعته «بالحسن» تيمنًا باسم الحسن بن على رابع الخلفاء الراشدين، وتنبأت له بمستقبل باهر كما تتنبأ أمهات العظماء لأبنائهن، وترويه كتب السِيَر.. بعد شهرتهم، ووفاتهم. وقد هيأت الظروف للمولود الجديد أسباب إعداده لمستقبل حافل بالنشاط، جمّ الخير والبركة لتصحّ النبوءة وتصدق الرؤيا والمصادفات.

وسرعان ما اختطفت الأقدار والدته وتركت الرضيع إلى والده وهو بعد لم يبلغ سن الفطام، ليتعهد تربيته، ويرعى تنشئته، فاندفع بحنان الآباء يطرق أبواب المنجبات ليجُدْن عليه برضعة وحنّت عليه المرضعات بالمناوبة فيرضعنه حسبة[٢] ولقى الأب من جرّاء ذلك المضضّ والإجهاد.. لذلك لم ينشأ الطفل نشأة رتيبة، كما ينشأ الأطفال مثله، ولم يترعرع بين أحضان أمه الحنون ويهنأ بعطفها ورعايتها..

ولئن كنّا لا نعرف عنه كيف قضى سنىّ طفولته فالذى يغلب على الظن أنه عاش فى معزل عن الصغار فى مثل سنّه وأنه كان يخشى أن يزاملهم ويلعب

(١) عبد الرازق محيى الدين ـ أدب المرتضى ص ٢٧ عن ابن أبى الحديد جـ ١ ص ١٤، وروضات الجنات جـ٢ ص ٣٨٣، رسالته لنيل درجة الدكتوراه فى جامعة القاهرة.

(٢) ابن الاثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٤-٨٦ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

معهم.. إذ شغله أبوه وهو مازال صغيرًا بالتعلم، وملأ وقته بحفظ القرآن.. كما لا نعرف عنه كيف أمضى أعوام صباه، وريعان شبابه، وشبان ذلك العهد من أبناء شيوخ القرى وموظفى الدولة لا تخلو حياتهم من عبث ومجون تفرضه نزعات الفتوة وطيشها وتؤهل له مكانة الأسرة فى المجتمع وامكانياتها، فلم نقرأ عنه عابثًا لاهيًا فى صباه يقتل الوقت بصيد العصافير ومطاردة الغربان أو الغزلان وكل ما نعرفه عنه في هذا الوقت المبكر من عمره أنه كان يحفظ القرآن[1].. ويقضى الوقت بين الكتّاب والبيت فإذا فرغ من تلقى دروسه عاد مسرعًا إلى داره.

ولعلّ حادث وفاة أمه العاجل أول فجيعة أصابته وتركت فى نفسه أثرًا عميقًا ظهر على سلوكه فى مطلع شبابه وإبّان كهولته، فإن حرمانه من حنان الأم وعطفها خلال هذه الفترة من طفولته جعل منه شابًا إراديّا يختطّ لنفسه طريقة للعيش يعتمد فيها على عزمه وصلابة رأيه ويسترشد فى المناسبات بتوجيه والده وعنايته.

ثم أغفل التاريخ أباه فلم يسجل لنا متى نزح به من قريته ولماذا..؟ وكيف مات...؟ وما هى علل موته؟ ولكنه ـ على كل حال ـ فقد توفى ولم يورثه مالاً أو عقارًا، وإن خلّف فلا يعدو شيئًا من جاه إذ إن خلاصة ما ترويه كتب السّير.. أنه كان رجلاً جوادًا كريم النفس، وأنه كان دهقانًا فى إحدى القرى بنواحى طوس[2] ثم تردّت حاله بعد أن كان جابيًا لطوس من قبل عميد خراسان أبى الفضل سورى بن المعتز عدة سنوات لعجزه عن تحصيل الرسوم بسبب المعارك التى نشبت بين السلاجقة والغزنويين[3]. ثم صار جابيًا لدى ـ جغرى بك داود ـ حوالى سنة ٤٣٠هـ وصاحب خراج فيها.. حينما فتحها سنة ٤٢٩هـ.

وقد يكون للنكبة المالية التى أرهق بها والده أثر على توجيهه الوجهة التى

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص١٣٥، والمنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨، والكامل جـ ١٠ ص ٨٤-٨٦، وابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٥.

(٢) ابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٨، ٧٩.

(٣) محمد عبد الرزاق ـ ترجمة «النظام» ص ٤١ عن دستور الوزراء ص٧، وآثار الأول فى ترتيب الدول ص٨.

صار إليها.. كما كان لعامل الفاقة أثرٌ آخر فى تفرغه وانصرافه إلى التعلّم ومن ثمّ إلى تنمية مواهبه.. ثم إلى بلوغه المركز الذى كان يأمله ويحلم به.. ولا نخال الوالد على فقره آنذاك إلاّ سعيدًا بولده.. نشوان بتقدّمه.

على أننا ينبغى ألاّ نجهل مؤهلات أسرته فى توجيهه العلمى، فإن أباه ـ كما عرفنا ـ كان دهقانًا.. والدهاقون كانوا فى جميع العهود مثقفين إلى حدٍ ما[1]، ثمّ اشتغل موظفًا لجباية الخراج والجزية فى مدينة مهمّة كطوس التى تحوى ما يزيد على ألف قرية.. وهو فى المركزين وخاصة ثانيهما لابد أن يكون عارفًا بالفقه والحساب والمساحة كما تحتم عليه «الآداب السلطانية» فى العهود الإسلامية حينذاك.. وأن أخاه الشيخ ـ عبد اللّه ـ كان من مشاهير الفقهاء.. وترجمت له معظم الكتب التى تعنى بسيرة العلماء[2].. لذلك يمكننا القول: بأنه نشأ فى أسرة متعلمة كان لها الأثر الكبير فى تحفيزه نحو التعلم وكسب ألوان المعرفة، كما كان لمواهبه الفطرية أثرٌ لا يقلّ عنها فى إدراك المعلومات والغوص فى أعماقها والتوسع في مجالاتها، تجلّت فى قوة حافظته وصفاء ذهنه وحدّة ذكائه[3].

تشأته وتعلمه:

تحدثت النقول التى عنيت بـ«النظام» حديث الإجلال والإكبار عما أوتى من علم وبلغ من معرفة وليس فى علوم الدين كالفقه والحديث فحسب بل فى العلوم العقلية كالحساب والمنطق.. واللسانية كاللغة والنحو... بيد أن الذى يلفت النظر إغفال الكاتبين لمراحله الدراسية ولاسيما تعليمه العالى، إذ لم يعرض واحدٌ منهم شيئًا عنه ولو موجزًا عن هذه المرحلة وذلك لأن شهرته السياسية قد غطّت على الجانب العلمى من سيرته، ولأن ما عرف به من خُلق

(١) كريستنسن ـ ترجمة الخشّاب ص ٤٠٠.

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٢٠٦، واليافعى ـ المرآة جـ ٣ ص ١٦١ وغيرهما.

(٣) الوصايا ص ٧، وابن فندق ـ تاريخ بيهق ص ٧٩ ، ٨٠.

رضى وعطف على العلماء والفقراء قد غطّت على جهده الذى كرّس له أعوام صباه وقسطًا كبيرًا من كهولته.. غير أن «النظام» يشير إلى مواطن تعلمه وأسماء مشاهير أساتذته فى ثنايا كتابه «الوصايا»[١].

ولم تستمر طفولة «النظام» كما نستنتجها من الأخبار، أكثر من خمس سنوات حيث تتلمذ على يد أبيه فأخذ يُحفّظه القرآن ويشرح له البسيط من الآيات طوال ستة أعوام، فلم يبلغ الحادية عشرة حتى أتمّ حفظه[٢].

وهنا فكّر الأب فى اختيار مدرس له فعهد به إلى ـ عبد الصمد الفندوحى[٣] ـ النيسابورى بطوس، وهو المدرس الأول «للنظام» حيث تلقى عليه مبادئ تعليمه الأولى فقرأ بين يديه العربية ومقدارًا من الفقه وسمع الحديث الكثير[٤] وهو لمّا يزل حدثًا[٥].

وبعد أن قضى ما يقارب عشر سنوات بطوس تضاعف طموحه ولم يجد فيما تلقّنه ما يشبع رغبته ويحقق آماله، فأخذت أحلامه تؤرّقه، وتملك عليه تفكيره فغادرها إلى نيسابور بصحبة أستاذه وبرغبة من والده حيث قدّمه إلى الإمام «الموفق هبة الله»[٦] النيسابورى، فشهد منه الرعاية والعطف حتى ألف خدمته وأنس مجلسه[٧].

ويصف لنا «النظام» أستاذه فيقول عنه: «كان رحمه اللّه من كبار علماء

---

(١) الوصايا ص٢٩.

(٢) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٢.

(٣) وفى كتاب «الوصايا» ـ فندوحى، وقد ظل ملازمًا للوزير ومنحه وكالة أوقاف فى أكثر الممالك ص٦.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٤، ٨٥، وابن خلكان جـ ١ ص ١٤٣.

(٥) المقدسى ـ الروضتين جـ ١.

(٦) هو الموفق هبة اللّه النيسابورى، كان كثير المودة للعلماء ومهّد للسلاجقة منذ تأسيس دولتهم، واستقبل إبراهيم ينال عند وصوله نيسابور كما تعاون مع طغرلبك عند فتحه لها (البيهقى ـ ترجمة يحيى الخشّاب ص ٦٠١ ـ ٦٠٥ وص ٦٩٩).

(٧) الوصايا ص ٢٩.

خراسان، وكان رجلاً مباركًا محترمًا، وقد نيّف عمره الشريف على الخامسة والثمانين، وقد اشتهر عن تعليمه التفاؤل واليمن فقيل: «إن كل طالب يدرس على يديه يبلغ الدولة والسلطان»[1].

وهنا قضى «النظام» ما يقارب أربعة أعوام فى الدراسات العليا تلقى فيها علوم العصر على يد أستاذه ـ الموفق ـ والتقى خلالها بزميليه ـ الخيّام والصبّاح ـ وعقدت بين التلاميذ الثلاثة تلك الاتفاقية المشهورة.. ثم عاد الابن إلى أبيه فى طوس فخورًا بما وصل إليه من درجة علمية إلاّ أنه وجد أباه قد عاد فقيرًا ونزل به الدهر من مكانته، فلم يصرفه شظف العيش عن تلقى العلم والانكباب عليه.. بل وجد فيه ضالته المنشودة التى تعوّضه ما يحسّه من ضياع أبيه لماله وفقدانه لمنزلته.. فلم يخلد إلى الدعة والراحة، ولم يستكن إلى لذائذ الحياة ومتعها وهو ممن حباهم اللّه صبرًا على الفاقة وجلدًا على تحصيل العلم، وممن وهبهم أقوى ذاكرة بين نظرائه ومنحهم النباهة النادرة بين أنداده، فراح يسابق الزمن ويصارع الصعاب واستأذن والده فى السفر إلى «بخارى» لمواصلة دراسته، وربما كان لإيجاد عمل كتابى له حيث قد بلغ من العمر الخامسة والعشرين تقريبًا كما نرجّح وهو سن يدعوه للتفكير فى مثل هذا بعد أن أوتى قسطًا وافرًا من العلم، وغدا أبوه فى حال من الفقر لا يحسد عليه.

بدء صلته بالصوفية:

وكأنى بالفتى كان ساخطًا حزينًا حيث لم يطب له البقاء على هون إلى جنب أبيه بعد أن شهد ظروفه المالية والاجتماعية آخذةً فى الانهيار، فألحّ أن يجيزه فى السفر إلى «بخارى»، وكانت يومذاك مقصد العلماء ومنشد الدارسين والفضلاء، فأذن له وهيّأ أسباب الرحيل ومعداته. ولمّا وصل إلى ـ دَرْبَنْد ـ كان

(١) الوصايا ص ٢٩.

الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير[١] يعظ الناس فى مهنة[٢] ـ قبل وصوله، وكان حديثه عن السعادة والشقاء وأسبابهما.. وقال فى أثناء كلامه: «من أراد أن يرى سيد الدنيا والآخرة فليذهب غدًا إلى طريق أرجان»[٣].. وما أن علم من مريديه أسباب استقباله حتى خفّ لزيارة الشيخ ودخل مجلسه خلسة وانتحى منه زاوية بعيدة، وإذا بسائل يلتمس الشيخ عطاء فهزت الأريحية والشفقة ذلك الفتى الغريب فوهبه حزامه الذهبى أو الفضى حيث لايملك نقدًا.. فقال الشيخ: فى مجلسنا اليوم رجل فتح منطقته، وسيتمنطق عنده أهل العلم قريبًا.

وبعد الانتهاء من الوعظ تلطّف الشيخ وأسرّ إليه ببشائر فى السلطان ونصحه بإيصال الهبات لمستحقيها، وأعلمه بأن فى انقطاعها عنهم نهاية أمره وأن هذه آخر مقابلة له[٤].

ثم واصل الفتى رحلته بعد أن ودّع الشيخ «أبا سعيد» واتجه نحو «بخارى» وأقام بها بضع سنوات يقدّرها أحد الباحثين بثلاث سنوات[٥]، عكف خلالها على البحث والدرس واغترف ما تاقت له نفسه من ألوان العلوم والفنون الشائعة حينذاك.. ثم انتقل إلى مرو[٦] حيث استكتبه ألب أرسلان ـ بناء على توصية أبيه جغرى بك أو الخواجة ـ أبى على بن شاذان[٧] وقيل إنه لم يستقر فى «مرو» إلاّ قليلاً حتى بارحها إلى «كابل» عن طريق «غزنة» التى كانت بين (٤٤١-٤٤٤هـ/ ١٠٤٩-١٠٥٢م) عاصمة ملك الغزنويين ومركزًا للدوائر ومقرًّا لكبار الموظفين، فأقام فيها مدة تمرّن فيها على تدبير الأعمال الإدارية والحسابية والإنشاء، ثمّ أراد أن يتكمل رحلته فغادرها عائدًا إلى بلخ[٨].

(١) هو شيخ الصوفية.

(٢) مهنة، وتكتب «مهنا» أيضًا والصواب «ميهنة» كما وردت فى بعض المراجع.

(٣) أرجان.

(٤) الوصايا ص ٨، ٩، وأسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ص ١٤٦.

(٥) محمد عبد الرزّاق ـ نظام الملك الطوسى.

(٦) المرجع السابق.

(٧) الوصايا ص٩.

(٨) محمد عبد الرزّاق ـ نظام الملك الطوسى.

وسواءٌ أصحّ هذا أم ذاك أم الاثنان معًا، فإن فى نزوله «بلخ» انتهاء المرحلة الأولى من سيرته وبدء مرحلة جديدة، حيث عيّن كاتبًا لأبى على أحمد بن شاذان حاكمها من قِبَل «جغرى بك داود» فوزيرًا لابنه «ألب أرسلان» بعد ذلك بقليل.. وبهذا تحولت شخصية «النظام» الفردية إلى جماعية إذ ارتقى السلّم الأول من مدارج حياته السياسية التى أصبحت مقترنة بحياة سلاطين آل سلجوق بل فى خلفاء بنى العباس الذين عاصروه.. وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصل الثانى.

تلك هى مراحل دراسته الابتدائية والمتوسطة والعالية التى رافقت حياته منذ الصبا حتى سنّ الشباب وإبّان الكهولة حيث شُغل بعدها بمهام الوزارة وتدبير أمور الدولة عن استئناف الدراسة المنهجية المنظمة.. أمّا ماذا درس خلال ذلك من علوم، ومتى قام فى رحلاته الدراسية بين كل بلد وأخرى، وكم قضى من الوقت فى كل مرحلة، وما مقدار عمره بالنسبة لهذه المراحل؟.. فهى من المسائل الغامضة التى أهملها المؤرخون لسيرته غير أنهم تركوا لنا بعض العبارات المتناثرة التى يمكننا الاهتداء فى ضوئها إلى إجابات أقرب إلى الواقع وأبعد عن الوهم والمزاعم.

من الثابت لدى المؤرخين أن «النظام» أتمّ حفظ القرآن على يد أبيه فى سنّ الحادية عشرة كان منها ست سنوات ـ على الأكثر ـ فى الطفولة.. ومن المرجّح عندهم أيضًا أنه اشتغل بوظيفة رئيس كتّاب ـ لأبى على أحمد بن شاذان[1] ـ قبيل سنة ٤٤٥هـ إذ فرّ منه هاربًا إلى بلاط جغرى بك داود ـ فى مرو، فوصله ما بين سنة ٤٤٥ ـ ٤٤٨هـ.

---

(١) هو أبو على أحمد بن شاذان من قرية خاوران فى نواحى خراسان، كان وزيرًا لملوك بنى سامان وبقى فى الوزارة مدة طويلة يزر للآباء والأبناء حتى قيل فيه:

وقالوا العزل للأعمال حيض ... نجاه الله من حيض بغيض

فإن يك هكذا فأبو على ... من اللآلى يثمن من المحيض

القزوينى ـ آثار البلاد ـ مادة خاوران.

وإذا فرضنا أن «النظام» قد اشتغل فى دائرة الخواجة ـ ابن شاذان ـ مدة تتراوح ما بين الثلاث إلى خمس سنوات كان يصادره فى نهاية كل عام ويقول له: سمنت يا حسن، يكفى للكاتب القلم، كما رواه «النظام» نفسه.. ولهذا تكون مدة دراسته بناء على ذلك.. حوالى ٢٧ عامًا بما فيها الزمن الذى كان يستغرقه التنقل بين تلك المدن النائية وتقتضيه مسالكها الوعرة الخطرة.. ونقدره من ٣ ـ ٤ سنوات.. وأنها كانت بين ٤١٣ ـ ٤٤٠هـ وأنه أنهى مرحلته التعليمية الأخيرة وعمره آنذاك ٣٣ عامًا.

بقى علينا أن نعرف فى أى وقت سافر إلى كل واحدة من تلك المدن العلمية وما هى الموضوعات التى درسها فى معاهدها وعُرف بها واحتل مكانته بواسطتها..؟

ليس من ريب بأنه قد بدأ رحلته الأولى من قريته ـ نوقان أو الراذكان ـ إلى ـ طوس ـ عام ٤١٩هـ حيث ولد سنة ٤٠٨هـ على أشهر الأقوال وأصوبها، وحفظ القرآن وهو فى الحادية عشرة من عمره، وبهذا فقد بدأ دراسته فى ـ طوس ـ وهو فى سنّ الثانية عشرة، وقضى فيها عشر سنوات لدراسة الفقه والحديث واللغة، ثم سافر إلى نيسابور عام ٤٢٩-٤٣٠هـ حيث تشير المصادر التاريخية إلى فتح السلاجقة لطوس فى هذه الفترة وتعيين والده ـ على بن إسحاق ـ جابيًا لخراجها من قبل ـ جغرى بك داود ـ حاكم تلك المنطقة من خراسان إلى ما وراء النهر، فأرسله والده يومئذٍ إلى نيسابور ليدرس فى مأمن من كل خوف واضطراب، وحيث تثبت كتب السير فى ترجمة الخيّام أنه التحق بمدرسة الإمام الموفق فى نيسابور عام ٤٣٠هـ وتعرّف «النظام» بها على زميليه «الصبّاح والخيّام» الذى قضى معهما أربع سنوات فيها كما يصرّح هو نفسه بذلك.. وعليه يكون قد غادرها عائدًا إلى طوس سنة ٤٣٤هـ.. ولبث فيها مدّة إلى جنب أبيه.. ثم استأذنه فى السفر إلى بخارى وما وراء النهر.

وهنا نجد فراغًا آخر تركه المؤرخون لسيرته فلم يذكروا لنا كم من الوقت قضى في طوس؟ وبأى عمل اشتغل خلال مدة إقامته؟ ومتى قام برحلته إلى ما وراء النهر؟.. ولولاً ما سجله هو عن سياحته وما شاهد فى طريقه لما توصلنا إلى معرفة عام سفره فقد ذكر فى «وصاياه»[1] وذكروا فى أخباره أنه حينما التقى «بأبى سعيد بن أبى الخير» قال له فى ثنايا نصحه: «إنك اليوم في مجلس هو الأول والأخير فى مقابلتى».. يشير بذلك إلى تنبئه بالموت، وقد ثبت أن الشيخ «أبا سعيد» انتقل إلى رحمة اللّه سنة ٤٤١هـ[2]، وبهذا يكون سفر «النظام» إلى «بخارى» فى هذا العام، وأنه مكث فى طوس ما يقارب سبع سنوات وأنه قد بلغ من العمر حينئذ ٣٣ ثلاثة وثلاثين عامًا. وإذا صدق ما فرضناه أولاً ولا نظنّه إلاّ صادقًا ـ بأن «النظام» قد بدأ عمله الحكومى ما بين سنة ٤٤٠-٤٤٥هـ موظفًا بسيطًا، فمن المحتمل أنه قد تدرّب على الأعمال الإدارية والكتابية ثلاث سنوات فى بخارى وغزنة، ثمّ التحق بوظيفة فى بلخ حينما انتقل إليها والتقى «بابن شاذان» حاكمها.

وفى العشرين عامًا الأولى من حياته المدرسية التى قضاها بين مدينتى طوس ونيسابور كان قد أنهى دراسته الرتيبة إذ أخذت تساوره الخواطر فى إيجاد عمل مناسب له، وفى أولها التوظف فى دوائر الحكومة التى أعدّ لها نفسه.. ولذلك لم نهتد إلى اسم أستاذ له فى بخارى وغزنة وبلخ.. ولم يذكر أحد المدّة التى مكثها هنا وهناك بالضبط. وقد يكون من المفيد جدّا أن نستمر في البحث عن المواد التى أتقنها والتى قضى عشرين سنة أو تزيد من عمره فى السعى المتواصل لتعلّمها، والتى مهدت السبيل لتكوين شخصيته وتبوئه المركز السياسى واللائق بما تعلّمه والمناسب له.

---

(١) الوصايا ص ٣٠.

(٢) وينسبه القزوينى إلى خاوران من نواحى خراسان، واضع طريقة التصوّف، وآداب الصوفية كلها منسوبة إليه، (آثار البلاد - مادة خاوران).

ولعلّ أول ما يسترعى انتباه الدارس لسيرة «النظام»، المتتبع لتطور حياته.. هذه المفارقة العجيبة بين قلة محصوله العلمى فى عهد الصبا وإشراقة ذهنه حينما عهد إليه بتدبير الملك، فضمّ إلى محفله فطاحل العلماء ونوابغ الشعراء والأدباء، وشارك فى مناقشتهم وتناظر فى مسائل الخلاف معهم[١].. وأبدى رأيه فى مشاكل عويصة، ومسائل غامضة[٢].. وعلى هذا فإمّا أن يكون قد جهل المؤرخون مرحلة دراسته فأغفلوها، وإمّا أنه لم يتعلم سوى ما نقلوا، ولم يدرس غير ما ذكروا، والأول أقرب إلى الصواب إذ تصفه المراجع العربية والفارسية وغيرهما بالعالم الفقيه[٣].. وهى صفات لايمكن أن يجمع عليها المؤرخون مصادفةً وأن يطلقوها عليه جزافًا واعتباطًا، فالعالم الفقيه حينذاك لايمكن أن يكون إلاّ بعد اجتيازه مرحلة واسعة فى التحصيل وشهرة كافية فى أوساط المتعلمين.. فما هى الموضوعات التى تفرغ لها وعرف بها حتى صار عالمًا فقيهًا؟

ألوان ثقافته ومراحلها ومنابعها:

لقد كان «النظام» ـ كما قلنا ـ غزير المادة والمعلومات، ولكنه ـ كما يغلب على ظنّنا ـ غير متعمق فى واحد من فروعها وافر المعرفة بأشتاتها دون استيعاب لأجزائها واستقصاء لمقرراتها وإلمام بأطرافها وهو بذلك قد اطلع ـ من غير شك ـ على مجموعة العلوم الإسلامية آنذاك وتلقى أصولها على كبار الأساتذة حينذاك، وإن لم يكن قد تضلّع فى واحدٍ منها، وربما أفاد من حضور مجالس العلماء وحضورهم مجلسه بصورة لا يقلّ معها أهمية من دراسته، وذلك لأن دراسته تلك المجموعة تحتاج إلى مواصلة الجهد فى البحث والتنقيب إلى وقت طويل قد يمتد بالمتعلم إلى سنّ الشيخوخة ـ وحتى الموت[٤].. وهذا ما لم يتح

(١) ابن خلدون ـ العبر جـ ٥ ص ٦، ١٢، حيث ناظر إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف.
(٢) المقدسى ـ الروضتين جـ ١ ص ٢٥. واختبر الإمام الغزالى قبل تعيينه أستاذًا لنظامية بغداد.
(٣) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٥.
(٤) لذلك شاعت الكلمة المأثورة عن الإمام الشافعى: من المهد إلى اللّحد أو من المحبرة إلى المقبرة.

«للنظام» تحقيقه لأن هوايته فى تدبير شئون الدولة، وتنفيذ رسالته من وراء ذلك قد ملكت عليه تفكيره، وملأت كل فراغ من جوانب حياته.

ومع كل ذلك ففى كتابيه ـ السياسة و الوصايا ـ وما عثرنا عليه من رسائل وعهود، ذخيرة قيّمة يمكن لرجال السياسة والاجتماع ودارسى العلوم والتاريخ الانتفاع بها والإفادة من آرائه وخبراته التى توصّل إليها ودوّنها فى مضامينها بعد دراسة شاقة طويلة، وتضحيات قاسية مريرة.. كما لا تخلو تلك المأثورات من نتف متفرقة يمكن أن ترشدنا إلى ألوان ثقافته ودرجة معرفته، نستطيع أن نسلسلها حسب إلمامه بها، وفى ضوء ما لمسناه فى مساجلاته والحياة العلمية فى عصره.

١- الفقه والكلام:

لم يكن «النظام» ـ فى الواقع ـ فقيهًا بالمعنى العلمى الدقيق، لذلك لا نجد مسوّغًا لإطلاق هذا اللفظ على وزيرنا سوى التجوز اللغوى، وتساهل أو تسامح بعض المؤلفين فى استعماله، ومهما يكن من شىء فقد دفعه التفقه لدراسة اللغة والأدب والتاريخ والتفسير والحديث وبعض العلوم ليبلغ درجة الفقيه فى أحكام الشريعة، ولكنه قبيل أن يصلها اتجه إلى السياسة يتخذ منها وسيلة لنشر آداب الدين والعمل بأحكامه، لذلك كان معظم المعنيين بسيرته يرددون كلمة ـ تفقّه[1] ـ وفرق بين المتفقه والفقيه لا يخفى على الدارس كالفرق بين المتعلم والعالم، ولذلك كان يلجأ إلى العلماء من حوله كالجوينى والقشيرى، والشيرازى، والغزالى.. إذا ما عرضت عليه مسألة عويصة، أو أشكلت إجابة ليستفهم عن حل الغامض ويستفتى عن الردّ الصحيح.. وإنّ عدم التفريق بين صيغ العابد والمتعبد والزاهد والمتزهد هى التى أوهمت فريقًا من الكاتبين عن «النظام» أن يصفوه بالعالم والفقيه، واعتبر قولة ـ ابن خلكان ـ بأن مجلسه

(١) ابن الأثير ـ الكامل ص ٨٤، وابن كثير ـ البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٤٠، والنويرى ـ نهاية الأرب جـ ٢٤ ورقة ١١٢، والسبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٢ وغيرهم.

كان عامرًا بالفقهاء دليلاً على صحة دعواه، وأنه «لو لم يكن فقيهًا لم يجلس كذلك، ولكان فى مجلسه أسراب الجميلات فى آسيا الصغرى وأحاطت به الظباء التركيات ومن حوله الندمان». على أنه لو كان صحيحًا ما ادعاه بعد ـ لو ـ لأصبح جميع الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء الذين تمتلئ قصورهم بالأدباء ـ من الشعراء.

حقّا: إن الصفات التى اشترطت فى وزير التفويض، ومنها العلم بالأحكام الشرعيّة علمًا يوصله إلى الاجتهاد فيها.. تضطرنا لموافقة الذين أطلقوا على «النظام»، وهو الوزير المفوّض طوال ثلاثين عامًا بلا نزاع لفظ العالم الفقيه.. غير أننا ينبغى أن نتساءل كذلك عن الناحية التطبيقية لهذه الشروط. وهل كانت موضع عناية الحاكمين ورؤساء الدولة بحيث لا يصل إلى مرتبة الوزارة إلاّ من توفرت فيه تلك الميزات؟.. إن واقع الأحداث، وسِيَرْ كثير من الوزراء تدلّنا على خلاف ذلك، وما قرأناه على ألسنة الشعراء والعامة من هجاء مقذع ونكات لاذعة يؤيد ذلك.

أمّا الكلام فلم يكن نصيبه فيه خيرًا من سابقه فقد وصف لنا نفسه مجلسًا من مجالس السلطان ـ ألب أرسلان ـ كان قد عقد بمناسبة مرور ـ الشيخ جمال الدين الخجندى[1] ـ بمرو ـ فى طريقه من تركستان إلى الحجاز فحصل النقاش بينه وبين قاضى مرو، فهذا يقول: إن لألفاظ «الخالق والبارئ والمصور» معانيًا ينفرد بها كل لفظ، وإن عدم الافتراق لا يمنع المغايرة، وذاك يقول: بأن معناها واحد، وأن مدلولاتها لا تتغاير ولا تفترق.. وقد اهتم السلطان بذلك ورجح قول قاضيه وإن لم يفهم جميع ما قيل فيه. ولمّا لم يجد «النظام» بدّا من التدخل فى المناقشة لانقاذ الموقف المحرج قال: «إن (بهمن) أول من استعمل مظلّة وكانت قبل ذلك درعًا يحمله جنديان فأمر (أردشير) أن يوضع على رمح يحمله رجل واحد، واقترح (بوشتين) أحد المهندسين صنع آلات خاصة للظل،

(١) فى الأصل ـ جندى ـ انظر ترجمته .

فكان «بهمن» موجدًا للمظلّة، وأردشير مصورًا لها، وبوشتين خالقها»، فاستحسنوا ذلك منه وسُرّ السلطان وترحم على الخواجة ـ على بن شاذان[1] ـ لأنه سبب معرفته به، وهى إجابة إن دلت على شئ فإنما تدل على لباقة خارقة، وبداهة نادرة وذكاء فارط.

٢- التاريخ والحديث:

وكان إلمامه بالتاريخ الإسلامى وتاريخ الفرس واسعًا، مما نفعه فى أداء مهمّته السياسية فقد كانت دراسة التاريخ من مستلزمات الوزير للإفادة والعبرة، لذلك لم يكن التاريخ ـ بنظره ـ كتابًا يقرأ للتسلية، أو قصة تروى للترفيه وتمضية الوقت، وإنما هو درس ذو مغزى وعظة ومن مغازيه الاستنتاج وتفادى الأخطاء المتكررة. ومن هنا نجده لا يتحدث عن أمر فى كتابيه ـ السياسة والوصايا ـ إلاّ وذيّلها بحادثة من التاريخ، فهو يعتقد أنه ليس من حادث فى الدنيا لم يكن قد حدث مرارًا من قبل وعليه تقاس النظائر والمماثلات وبها يمكن التكهن بالنتائج والخاتمات، لأن التاريخ ـ كما يقولون ـ يعيد نفسه، خلافًا لما يراه آخرون. ثم يحكى لنا قصة جيش بخارى والخدعة التى استعملها ـ البتكين ـ لوقوعه فى الفخ فإن من عرف بها سوف لا يتعقب عدوًا إلى وادٍ لا يعرف عنه شيئًا[2]. كأنى به يردّد قول الشاعر العربى القديم:

عبرٌ كلها الحياة ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرأ

غير أنه لم يذكر ما يدلّنا على معرفته بتاريخ الغرب عدا ما كان يعرفه عن الدولة الرومانية الشرقية حيث أبلى فيها وأسهم فى حربها ومهّد للقضاء عليها.

على أن «النظام» لم يستطع تجنب الأخطاء فى نقل الوقائع التاريخية[3]، كما لم يستطع تجنب الغلطات السياسية التى سبقه إليها غيره كما ادعى وقصد من دراسة التاريخ، وفى كتابه ـ سياستنامة ـ أسئلة كثيرة على

(١) الوصايا ص ٥٣.

(٢) الوصايا ص ٥٢.

(٣) نظام الملك وسياستنامة ـ يحيى الخشّاب ـ بحث ألقى فى مؤتمر المستشرقين ونشر فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية ـ العدد الأول ص ٣٢٨، وانظر كذلك: ص ٧، ١٣، ٥٠، ٥٥، ٦٨ من سياستنامة.

ذلك منها: ذكر بغداد فى حديث عمر بن الخطاب، والمهدية فى قصة يعقوب بن الليث الصفار، وعمارة بن حمزة، الخليفة الواثق، وأبى على الدقّاق مع الأمير أبى على الياسى، ودخول المعتصم إلى القسطنطينية وبنائه مسجداً فيها، وقد يكون بعضها من إضافات النسّاخ قبل طبع الكتاب.

وربما كان حظه فى رواية الحديث خيراً منه فى الفقه والكلام والتاريخ إذ تكاد تجمع النقول عنه بأنه سمع الحديث وأسمعه[1]. . بل قال أحد المؤرخين: «سمع الحديث الكثير»[2]. وخلّف لنا مجلسين كان قد أملاهما فى النظامية مرّة وفى جامع المهدى ببغداد مرّة أخرى، وقد حفظت المجاميع المخطوطة القديمة فى مكتبات إيران ودمشق نسخًا من هذين المجلسين فى حين ضاع غيرهما. . وهى مع أنها لا تعتمد على شىء سوى الدقة فى السماع والإسماع فإنها لا تخلو من ضعف فى الإسناد وإيراد ما ليس من الحديث كأنه منه. . كما سنرى ذلك ونتحدث عنه فى موطنه، ويطلع عليه القارئ فى ملحقات هذه الدراسة.

٣- الحساب واللغة:

وقد زعم أحد كبار الباحثين القدامى أن «النظام» قد تعمّق فى الحساب كما برع فى اللغة والإنشاء حتى قال عنه: «إنه لم يكن فى زمانه أكفأ منه فى صناعة الحساب وصناعة الإنشاء» ووصفوه بسداد الألفاظ فيهما عربية وفارسية، وقد يكون هذا صحيحًا فيما يتصل بالكتابة، إذ أقام الدليل عليه بما خلّف من رسائل ومؤلفات تعتبر نموذجًا عاليًا فى النثر الفارسى، كما أثر عنه كلمات ومحاورات ورسائل عثرنا على مجموعة منها يمكن أن تعدّ أمثلة على إجادته العربية والكتابة فيها، وتشهد على مدى تضلعه فيهما. وممّا ذكر له بهذا الصدد أنه صادف فى سفر له راجلاً فى زى العلماء، وقد بدا عليه التعب والكلال

(١) ابن خلكان جـ ١٢ ص ١٤٠، والعمرى ـ مسالك الأبصار ص ٢٠٣، والنويرى ـ ورقة ١١٢ جـ ٢٤.

(٢) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٨٤، ٨٥.

فأراد اختباره، فسأله: «أيها الشيخ أَعييت أم أُعييت؟»[1]. فأجابه: بل أعييت، ففهم «النظام» قدره لأنه فرّق بين العيى فى اللسان والإعياء وهو التعب فى الجسم، فأمر له بزاد وراحلة.

أمّا الحساب فقد ترك لنا قصة جرت له مع زميله المنافس له ـ ابن الصبّاح ـ أمام السلطان ـ ملكشاه ـ تدلنا على معرفته البسيطة فى هذا الموضوع.. نوردها لطرافتها ودلالتها معًا. فقد طلب «النظام» نقل خمسمائة «مَنٍّ»[2] من الرخام من حلب إلى أصبهان فنقله أعرابيان لأحدهما أربعة جمال وللثانى ستة، وكان لكل واحد منهما خمسمائة «منّ» من الرخام خاص بهما وكانت الأجرة ألف دينار فأعطى «النظام» للأول أربعمائة وللثانى ستمائة، وما أن بلغ الخبر مسامع ـ ابن الصباح ـ حتى أخذ يشنّع عليه ويعلن سوء تصرفه حتى سمع السلطان فأحضرهما.. ووقف «ابن الصبّاح» يشرح نظريته ويبرهن على أن للأول مائتى دينار وللثانى ثمانمائة.. وطلب السلطان تبسيطها مرة ثانية فأعادها عليه.. ولكن السلطان لم يظهر شيئًا تجاه وزيره تلطفًا منه[3].

وخلاصة القول: إن ثقافة «النظام» ـ كما يغلب على ظننا ـ كانت واسعة أكثر منها عميقة، وشاملة أكثر منها مركّزة، وكان يشوبها عنصر الخبرة والذكاء أكثر من التحرى والاستقصاء.. وأن ما أفاده «النظام» فى مجالسة العلماء والاستماع إلى محاضراتهم ومناظراتهم لا يقل أهمية فى حياته العملية دعمًا بما درسه فى صباه من علوم نظرية.. إذ إن المنابع التى يستقى منها الشخص الذكى ثقافته لا تنحصر فى البيت والكتاب والمدرسة، وإنما تتعداها إلى المشاهدات والمسموعات وما يتلقاه عن طريق بقية الحواس.

---

(١) ابن الصلاح ـ طبقات الشافعية ـ اختصار النواوى ـ ورقة ٥٣.

(٢) المن ـ وزن قدره فى العراق اليوم ست حقق، والحقة أربع أوقيات والأوقية ٩٦ درهم. والحقة تعادل ١٫٢٥ كيلو.

(٣) الوصايا ص ٣٣.

مجلس «نظام الملك»:

وقد كان لمعرفته هذه الحقيقة وإدراكه لمنزلة العلم والعلماء فى المجتمع وأثرهم فى تقدمه ونجاح أهدافه أن جعل من داره ندوة يوم الإثنين من كل أسبوع يرتادها العلماء والأدباء دون قيد فى سّن أو شرط فى مذهب، فهذا الحنبلى والمالكى إلى جنب الحنفى والشافعي، وذاك المعتزلى إلى جوار الأشعرى، وفى هؤلاء وأولئك من هم فى دور الشباب أو الكهولة أو الشيخوخة.. لأن الجامع بينهم معرفة الحقائق الغيبية سواءٌ أكانت عن طريق العقل والكسب، أم عن طريق «نقاء الضمير وصفاء القلب»[1].. إذ كان مجلسه عامرًا بهذا الفريق من الصوفية أصحاب هذا الرأى لأنه يميل إليهم بل يعتقد مذهبهم، لأنه ـ كما نرجّح ـ متصوّف مثلهم ويصغى لأقوالهم ونصائحهم ويستفيد من حوارهم ومناقشتهم.

وربما كان خير وصف لمجلس «النظام» الذى يضم بين جدرانه أقطاب المذاهب المختلفة ما وردنا على لسان أبى يوسف القزوينى شيخ المعتزلة إذ دخل عليه مرّة وعنده أبو محمد التميمى زعيم الحنابلة ورجل أشعرى فقال له: «أيها الصدر قد اجتمع عندك رؤوس أهل النار، فقال كيف؟ فقال: أنا معتزلى وهذا حنبلى وذاك أشعرى وبعضنا يكفّر بعضا»[2].

ويصفه لنا السبكى بعد ذلك بقوله: «وكانت مجالسه معمورة بالعلماء مأهولة بالأئمة والزهّاد، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه وترددهم على بابه، وثنائهم على عدله، وتصنيفهم الكتب باسمه.. يحضر سماطه مثل أبى القاسم القشيرى، وأبى إسحاق الشيرازى، وإمام الحرمين وغيرهم»[3].

ثم يعود لوصف «النظام» وهو متكئ على وسادته فى رأس مجلسه فيقول:

(١) ابن خلكان جـ ٣ ص ١٤٣.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٨٩ ـ حوادث سنة ٤٨٨هـ، وابن تغرى بردى ـ النجوم جـ ٥ ص ١٥٦.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٧.

«إن جلس بين العلماء جلس وعليه سيماء الوقار، وله من التأديب معهم ما شهدت به الأخبار، يتضاءل بين العلماء ويتنازل وإن كان منزله أعلى من نجم السماء»[١].

وكان إذا وفد عليه أحد من رجال العلم اغتنم فرصة وجوده وعقد مجلس المناظرة بينه وبين أعلام حاشيته.. وربما رأس الجلسة بنفسه وقد يسهم فى المناقشة ويحاجج المتناظرين، فلم يصل «أبو إسحاق الشيرازى» ـ رسولاً إلى السلطان ملكشاه ووزيره «النظام» ليعرض شكوى الخليفة من عميد بغداد ـ أبى الفتح بن أبى الليث ـ وسوء معاملته للخليفة القائم.. حتى حضر الشيخ مجلس «النظام» وجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف[٢].

وكأن الشاعر قد عنى مجلس «النظام» وأمثاله من الوزراء بقوله[٣]:

وذكرنى حلو الزمان وطيبه ... مجالس قوم يملئون المجالسا
حديثًا وأشعارًا وفقهًا وحكمةً ... وبرًّا ومعروفًا وإلفًا مؤانسا

وكان مجلسه العامر بهؤلاء وأولئك، وانشغاله باستقبالهم وقضاء الوقت معهم مبعث تساؤل من قِبَل خاصته حتى قال له أحدهم: «هذه الطائفة قد بسطت لهم فى مجلسك حتى شغلوك عن مهمات الدولة ومصالح الرعيّة فإن تقدمت أن لا يصلك أحد إلاّ بإذن، وإذا وصل جلس بحيث لا يضيق عليك مجلسك.. فقال: هؤلاء هم أركان الإسلام، وهم جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسى لاستقللت ذلك لهم»[٤].

وكان مجلس «النظام» ـ كما روت النصوص ـ حافلاً بالشعراء كما كان

---

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥.

(٢) ابن خلدون ـ العبر جـ ٥ ص ٦، والمختصر لأبى الفداء جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٣) وقد اشتهرت بذلك مجالس «ابن عباد» ومن قبله مائدة «أبى محمد الحسن المهلبى» التى كان يجلس عليها أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى، والقاضى أبو على التنوخى صاحب نشوار المحاضرة.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨ ـ حوادث ٤٨٥هـ.

يغصّ بالعلماء. . . وكان هو يغدق عليهم حتى صارت داره ملجأ كل طالب علم أو مال وملاذ كل قاصد حاجة أو جاه وكان هو لا يخيّب ظن واحد منهم فى أغلب الأحيان مادام فيه قبسٌ من علم أو شعاعٌ من أدب حتى قال ابن القلانسى: «إن النظام كان يجرى رزقه على اثنى عشر ألف إنسان من فقيه وشاعر وغيره»[1]. ومهما قيل فى هذا من غلو فإنه لا يخلو من واقع إذ إنه كان ينعم بالهدايا والجوائز على شكل نقود وثياب وخيل وعبيد فقد حكى أنه أجاز ـ ابن الهباريه ـ على مدحه إيّاه خمسمائة دينار، وكثيرًا من الثياب.

الشعراء فى مجلس «النظام»:

ولتلك الدواعى وغيرها من الأسباب ظهر فى هذا العصر عدد من الشعراء قلّ نظيره فى عهود مضت وإن لم يكن فيهم المجوّد الأصيل إلاّ القليل، والتف حول «النظام» منهم عدد لانجد له مثيلاً فى بلاط الملوك والخلفاء فضلاً عن قصور الأمراء والوزراء. . فكأن «دمية القصر» التى ألّفها الباخرزى فى تراجم كبار الأدباء فى عصره إنما كانت لشعراء النظام، وإذا علمنا أنها تحتوى على سبع وثلاثين وخمسمائة ترجمة كان بينها ما يقارب الأربعمائة فى مدح الوزير، عرف صواب ما نقلناه، وبذلك كان «للنظام» من غير شك، أثرٌ كبيرٌ فى نهضة الشعر وتقديره، وتداوله بين الناس وشيوعه، وإقبال الخاصة عليه وتنافس الشعراء فى قرضه وتفننهم فى نظمه حتى مدحه طاهر بن الحسين البندنيجى بقصيدتين تزيد كل واحدة منها على أربعين بيتًا وكانت إحداهما جميع حروفها منقوطة والأخرى مهملة[2].

وهنا يصحّ لنا أن نتساءل: هل كان «النظام» يتذوّق الشعر ويحب الشعراء؟ وهل حقيقة ما قيل بأنه قرض الشعر؟وهل كان سلاطينه يميلون إلى الشعر ويستسيغون سماعه؟

تلك مسألة لابد للدارس من البحث عن حقيقتها والإجابة عليها ولو

(١) أبو يعلى حمزة بن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.
(٢) أبو الوفاء الهمدانى وكان شاعرًا أديبًا لايمدح لغرض الدنيا. توفى سنة ٤٨٠هـ ـ الكامل جـ ١ ص ٩٧.

باختصار. ومن المعروف لدى معظم المؤرخين أن الترك ومنهم السلاجقة وبخاصة أوائل سلاطينهم كانوا لا يميلون إلى الشعر ولاسيما العربى منه حتى اشتهر قول ابن المهذب وهو يمتدح ابن زريك[1] فى قصيدة منها:

أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا

ويدعم هذا القول ما رواه النظامى العروضى من أن السلطان ـ ملكشاه ـ قد أهمله ولم يسأل عنه سنة وقطع عنه صلاته من زاد ودراهم حتى تضاعفت نفقاته وأثقلت الديون كاهله وكلما حاول أن يراه لم يستطع رؤيته. كان ذلك على الرغم من إيصاء والده «أمير الشعراء البرهانى» السلطان ملكشاه برعايته واستودعه عنده إلى أن توسط له الأمير ـ علاء الدولة ـ وتحدث بشأنه مع الوزير «نظام الملك» فأمر بصرف وظيفته من الخزانة وحوّله على أصفهان، ولم يمض شهر رمضان من تلك السنة حتى جعله من ندماء السلطان ملكشاه[2]، ولكن «عروضى» قبيل أن يختم قولته هذه يخبرنا بأن الوزير الكبير «نظام الملك» (رحمه اللّه) كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يحسنه وما عنى بأحد غير الأئمة والمتصوفة.. وفى خاتمة حديثه يقول: «إن آل سلجوق جميعًا يحبّون الشعر»[3].

وغير خافٍ على الباحث نوازع «عروضى» حين أبدى رأيه فى «النظام» والسلاجقة فإنه كان فى الأولى غاضبًا على السلطان ووزيره حيث تعقدت أموره وهو الشاعر ابن أمير الشعراء، وفى الثانية كان قد أصبح من ندماء السلطان ملكشاه فلا يقول فيه وفى أسرته إلاّ ما يقوله الشعراء فى ممدوحيهم من الملوك والسلاطين.

وربما كان لزهد «النظام» وتقريبه المتصوّفة ومباسطته لهم وما تأثر به من

(١) هو أبو الفرح عبد الله بن أسعد المهذب ـ انظر: (ابن خلكان الوفيات فى ترجمته، وابن الأثير ـ الكامل ص ٢).

(٢) نظامى عروضى سمرقندى ـ جهار مقالة ص ٥١ (الترجمة).

(٣) نفس المرجع.

سلوكهم فى الرغبة عن المدح والاطراء حتى أوثر عنه أنه كان يكبر من يذمّه ويذكر له عيوبه من العلماء فيقوم له ويجلسه فى مكانه ويقعد بين يديه وهذه خليقة المتزهدين، وسجية المتصوّفين، نقول: وربما كان لما تأثر به، وأوثر عنه، أثرٌ فيما ظنّه بعضهم، من عزوفه عن الشعر وميله عن الشعراء.

والذى يغلب على الظن أن سلاطين السلاجقة الأول ما كانوا يميلون إلى الشعر وما كانوا بحاجة إليه، وإنما هم إلى فنون الحرب والقتال أحوج، وقد حذقوا هذه بقدر ما جهلوا ذاك، وانشغلوا بهذه لمواصلة الفتوح بقدر ما أهملوا ذلك. وأن ألب أرسلان وملكشاه ما كانا يميلان إلى سماع الشعر وكانا يضيقان بالشعراء، وربما كانا أشدّ تبرمًا بالشعر العربى وشعرائه لأنهما لايعرفان العربية فضلاً عن فهم معانيها الشعرية.

أمّا «النظام» فقد تضافرت أقوال المؤرخين بمعرفته العربية وفروعها ـ وقدرته على فهم قواعدها وإدراك أسرارها، وفى بعض الأخبار ما يدلنا على تحمّسه لها وميله لأهلها فليس غريبًا أن يميل إلى الشعر، وأن يقَرّب إليه الشعراء وأن يتلذّذ بالإصغاء إليهم وأن يستمتع بإغداق الهبات والعطايا عليهم فضلاً عما يراود خاطره من مقاصد سياسية فى جلبهم إلى حضرته ودنوِّهم منه، وما يؤدونه من خدمة فى الدعوة له، والكيد لمنافسيه وخصومه.

وقد يغلو بعض المؤرخين فينسب إليه أبياتًا من الشعر العربى وأخرى فى الفارسى فيحكون لنا أنه روى الشعر وقاله، ومن قوله:

بعد الثمانين ليس قوة ... قد ذهبت شرّة الصبوة
كأننى والعصا بكفّى ... موسى ولكن بلا نبوة

ولئن تراجع ـ ابن خلكان ـ فى نسبة هذين البيتين إلى «النظام» وكيف يخبرنا بعد قليل بأن بعضهم ينسبها إلى ـ أبى الحسن محمد بن أبى الصقر الواسطى ـ فإنهما فى الواقع ـ ليسا من الشعر الذى يفخر فى نسبته إلى «النظام» كما أنهما أقل جودة مما عرف من شعر الواسطى، وأنهما بالنظام السياسى

المتصوّف أولى، وإلى شعر العلماء أقرب، ثمّ إن صورة الشيخ يتوكأ على عصاه حيث لا يستطيع المشى وأن تشبيه هذا الشيخ بموسى، وهو سيد قومه مع فارق النبوة بينهما تنطبق عليه وتبعد بنا عن نسبتهما إلى الواسطى إذ لم يعرف عنه أنه بلغ سن الشيخوخة «كالنظام» كما أنها وردت منسوبة إليه فى مصادر أخرى منها «كتاب العصا» فقد ذكر نقلاً عن الشريف ـ الإمام شمس الدين أبو المجد على بن على الناصر الحسينى الحنفى الموصلى المتوفى سنة ٥٦٥هـ بأن الخواجة برزك يقصد «نظام الملك» خرج وفى يده عصا وهو ينشد هذين البيتين كما سبق ذكرهما.

وما يعترض به من أنه لم يتجاوز الثمانين عند اغتياله وهذا ما يتناقض وقوله: بعد الثمانين إليه. فالوجه فيه أنه كان فى أواخر العقد الثامن حيث قتل فى الـ٧٨ من العمر. كما أنه استعمال دارج فى أوساط الأدباء، ومنه قول لبيد:

إن الثمانين ـ وبلغتها ـ قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ونسبوا إلى ـ «النظام» أيضًا مقطوعة بالفارسية ارتجلها عندما طعن وأرسلها إلى السلطان ملكشاه، وفيها يقول[1]:

يكجند باقبال توأى شاه جهاندار كرد ستم از جهرة أيام سِتُرْ دم
طغراى نكونامى ومنشور سعادت بيش ملك عرش بتوقيع تو بُردم
آمدز قضا موت وعمرم نود وسه واندر سفر أزخريت يك كارد بمردم
تكذا شتم اين خدمت برنيد بفرزند أورا نحد أو نجد اوند سبردم

وتعريبها كالآتى:

أيا ملك الدنيا بيمنك آنفا نفضت غبار الظلم عن جبهة الدهر
وقد لفّ منشور السعادة مُشْفِعا بطغراء حسن الذكر منك معى القبر

(١) أسامة بن منقذ ـ كتاب العصا من المجموعة الثانية لنوادر المخطوطات ـ نشر عبد السلام هارون ص ٢١٠.

obeikandi.com

لأبدى لملك العرش عدلاً موقعا بتوقيع ملك الأرض إن ضمّنا الحشر
ولما مضت تسعون بعد ثلاثة أتانى القضا بالموت وانقطع العمر
فلاقيت حتفى حين جاء بمدية لدى سفرى والدهر شيمته الغدر
خدمتك دهرًا ثم أبقيت خدمتى كموعظة لابنى وأنت الأب البرّ
وأرجعته لله جلّ جلاله وللملك المحبوب إن قضى الأمر

وهى كما نراها ليست من الشعر الجيد فى شئ وإن كانت من حيث جزالة أسلوبها فى لغة الأصل متوسطة أو فوق المتوسط، وهى على الرغم من ركاكتها موضع نظر الباحثين من ناحية السنّ الذى تضمته الأبيات، فبعض المؤرخين ومنهم الفرس يأتون بها للاستشهاد على قوله الشعر، وبعضهم ينفيها عنه وأنها من وضع جاهل بعمره، غير أننا وإن لم نكن بصدد إثباتها أو نفيها إنما يعنينا من حياته ـ فى الدرجة الأولى ـ جانبها السياسى ونشاطه الدولى. ينبغى أن نتنبه إلى أنه من الجائز أن حدث تحريف من الخطاطين فكتبها أحدهم ـ نَوَدْوسَهْ ـ بدلاً من ـ هقّنادْ وهَشْت ـ وهى أساس فى البيت وأطوع من سابقتها حيث يقف القارئ متعثرًا عند قراءته.

وسواءٌ أكان وزيرنا ناظمًا مقلاّ أم لم يوح إليه شيطانٌ عبقر بفتات موائد الموهوبين من الشعراء.. فقد أحاط به لفيف منهم، لمّا تسامعوا باسمه وتشجيعه فى كل ناحية فهرعوا إليه من كل فجّ وصوب يتنادون بفضائله ويشيدون بأعماله، وقد تساوى فى هذا العرب والفرس ونظم هؤلاء فى حقه باللغتين الفارسية والعربية.. وتسابق فى مديحه الأمراء والسوقة.. ويكفينا شاهدًا على علو قدره، وجسامة أثره أن يبلغ مادحوه المئات من الشام والحجاز والجزيرة والعراق وفارس وغزنة وقهستان، وأن يكون من بينهم.. من شعراء العرب: المجاشعى شاعر الحرمين المتوفى سنة ٤٧٩هـ[1].. قصد الحضرة النظامية من مكة، ومدحه بقصائد عديدة منها هذه الجاشعة التى لقيه بها على باب منازجرد سنة ٤٦٣هـ ومطلعها:

(١) الباخرزى ـ دمية القصر ص ١٥، والقفطى فى إنباه الرواة جـ ٢ ص ٢٩٩.

جوى ماجرى بين الحشا والجوانح وفرط اشتياق بين غاد ورائح

ومنهم أبو الهيجاء شبل الدولة المتوفى سنة ٥٠٥هـ[١]، ومنهم الشريف أبو طالب محمد بن عبد الله الأنصارى الدمشقى[٢]، وعبد الواحد بن دلف الفجاج، وأبو المظفر محمد الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧هـ[٣]، وابن الهباريه البغدادى المتوفى سن ٥٠٤هـ[٤]، وأبو سعد العلاء بن الحسن بن الموصلايا المتوفى سنة ٤٦٩هـ والموفق بن خليل الشيبانى[٥]، وأبو عبد الله بن الفتى الحلوانى[٦] صاحب المقطوعة الرقيقة التى مدح بها النظام، وهى من أعذب الشعر وأروعه والتى مطلعها:

يا ظبية وقفت بباب الطاق بينى وبينك أؤكد الميثاق

ومدحه بالعربية من شعراء فارس وأعلامها: عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ[٧]، والزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ[٨]، وأبو زكريا يحيى بن على الخطيب، والرئيس أبو نصر الأصبهانى، ومحمد بن أحمد الشطرنجى، وابن بابا، والخطاط النظامى، والموفق النظامى، وأبو طاهر الشيرازى، وأبو الفرج المعروف بفروجه، وأبو القاسم السجزى، وأبو منصور نصر الشاكى الملقّب بالمصباح، والغانمى الهروى، والعليمى، والكاتب، والبارع، والباخرزى

(١) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٥ ص ٣٤٤، ومرآة الجنان جـ ٣ ص ١٩٢، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٤.

(٢) الباخرزى ـ دمية القصر ص ٥٨-٦٠.

(٣) ترجمته فى معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٢٢٤، وبغية الرعاة ص ١٦، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٦.

(٤) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣٥، والصفدى ـ الوافى جـ ١ ص ١٢٠، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١٠.

(٥) العماد الأصبهانى ـ الخريدة جـ ١ ص ١٢٣-١٢٦.

(٦) القفطى ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ٢ ص ٢٦، والباخرزى ص ٨٧، وبغية الوعاة ص ٢٦٠، وشذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٩٩.

(٧) القفطى ـ إنباه الرواة جـ ٢ ص ١٩٠.

(٨) انظر: ديوانه المخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٢٤٣ أدب، وترجمته فى الأنباء جـ ٣ ص ٢٧١.

والطغرائى، والطنطرانى وغيرهم، وبالفارسية: كثيرون منهم: اللامعى الدهستانى[1]، والمعزى[2]، وأنورى، وسواهم.

وعلى الرغم من سماحة يد «النظام» وسعة صدره فلم يستطع الخلاص من دسائس المنافسين وكيد الحاسدين، فأغروا بعض الشعراء بهجو «النظام»، ولكننا لم نستطع العثور على نماذج منه، ولا نعرف شاعرًا هجاه غير مادحه وربيب نعمته.. وهو ابن الهبارية. وإن أصحاب السير يحكون لنا متى ولماذا هجاه، وأنه حينما طلب إليه أبو الغنايم تاج الملك بن دارست[3]، أن يهجو «النظام» قال: كيف أهجو شخصًا لا أرى فى بيتى شيئًا إلاّ من ذمّته؟[4].. ولكن بريق المال خدعه واتخذ من عدم إجابة «النظام» لسؤاله ذريعة وقال فيه ثلاثة أبيات:

لا غرو إن ملك ابن إسحاق وساعده القدر
وصفت له الدنيا وخُصّ أبو الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلاّ بالبقر

وسواءٌ أكان الذى حرّضه على ذمّه ـ أبو الغنايم ـ غريمه كما رواه ابن خلكان[5]، أم أبو المحاسن صهره كما يراه الصفدى[6]، وسواءٌ قدمها إليه بنفسه كما ذكر الآخر أم بلغت مسامعه كما ذهب الأول.. فإنه لم يغضب لها، وإنما شرح قولته باسمًا وهو يشير إلى المثل السائر على ألسنة الناس وهو قولهم: «أهل طوس بقر» وكتب على رأس رقعته، يطلق لهذا القوّاد

(١) هو أبو الحسن محمد بن إسماعيل اللامعى الكركانى من شعراء السلطان ملكشاه ووزيره النظام وكان معاصرًا للبرهانى والد المعزى.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك النيسابورى وكانت وفاته على أحد الأقوال سنة ٥٤٢هـ/ ١٠٤٧م حيث قتل خطأ بيد سنجر (لباب الألباب جـ ٢ ص ٦٩ ـ ٨٦).

(٣) وفى الوافى بالوفيات للصفدى ـ أبو المحاسن وهو صهر النظام وكانت بينهما منافرة جـ ١ ص ١٣٠.

(٤) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٧٧.

(٥) الصفدى ـ الوافى بالوفيات جـ ١ ص ١٣٠.

(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٠.

رسمه مضاعفًا[1] وقيل: «وزاد في أفضاله وخلع عليه وأعطاه خمسمائة دينار[2] حتى عدّوا هذه ضمن مكارم أخلاقه وسعة حلمه»[3]. . وحتى قال «ابن الهبارية» لمحرضه: «ألم أقل لك إنى ما أهجوه وهذا فعله معى»[4].

وتحدثنا النصوص. . أن «ابن الهبارية» قد عاود فعلته هذه وقال فى «النظام» قصيدة غضب «النظام» عند سماعه بها، وفيها يقول:

أتجهل يا نظام الملك أنى ... أعاود فى حماك كما قدمت
وأصدر عن حياضك وهى نهب ... بأفواه السقاة وما وردت
يدلّ على فعالك سوء حالى ... وتنطق عن مقالى إن كتمت
وما فى الوافدين عليك شخص ... يمت من الولاء كما أمّت
وهم دونى إذا اختبروا جميعًا ... فَلِمْ بالدون دونَهم خُصصت
وفى أصلى وفصلى غير خاف ... ولَكن ما لِفضل منك صنت
إذا ما ضعت عند بنى جهير ... وعندك ـ مع سماحتك ـ انتهيت
فأين الفرق بينكم وماذا ... ببعدى عن دياركم استندت
وها أنا ساكت فإن اصطلحنا ... وإلاّ خاننى صبرى وقلت

قيل: ولما سمع بها أهدر دمه إلى أن تشفع له ـ صدر الدين محمد ابن الخجندى ـ الذى كان يحضر مجلس «النظام» فى كل يوم اثنين، فقبل شفاعته. .

وهى ـ مع ذلك ـ ليست هجاءً مقذعًا. . وإنما ينتهى بها إلى شىء من التوسل والاعتذار إليه والاعتراف بسماحته، وهى كذلك مهلهلة الأسلوب ضعيفة المعنى ولعلّها من صنع المغرضين.

---

(١) مرآة الزمان جـ ٨ نقلاً عن الخريدة.

(٢) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ٥ ص ٧٧.

(٣) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان جـ٨.

(٤) نفس المصدر.

وكما مدح «النظام» مئات الشعراء أيام حياته فقد رثاه عشراتهم بعد وفاته، وقد أسهم فى تأبينه العرب والفرس أيضًا وكانت لوعة هؤلاء به أشدّ، ومبالغتهم فى تعداد مناقبه وآثاره أقوى.

ويجدر بنا ـ ونحن فى ختام هذا الفصل ـ أن نتبين مصدر ذلك النشاط الفكرى، وأهم مراكز تلك الحركة الثقافية، ونتلمس القوة المسيّرة لها والعوامل المشجّعة على بعثها ونشرها.

لقد عرفنا من قبل أن العراق بحواضره الثلاثة: بغداد والبصرة والكوفة ثم الموصل كان مركزًا لحركة ثقافية طوال القرون الخمسة للهجرة. ومن هذا المركز كانت تشعّ ألوان الثقافة ـ على اختلافها فتشمل أرجاء العالم الإسلامى شرقًا وغربًا.. وبهذا ولدت بيئات علمية جديدة أخذت ترقى تدريجيًا حتى أصبحت ـ خلال القرن الخامس الهجرى ـ تنافس البلد الأم فى عدد علمائها وطلابها وأنواع العلوم التى تدرّس فيها.. وكانت «نيسابور» و «طوس» و«أصبهان» و «مرو» فى بلاد فارس و «بلخ» و «بخارى» و «هرات» و «آمل» و«طبرستان» فيما وراء النهر من أمهات المدن التى كانت تستقبل ذلك الإشعاع الفكرى وتبثّه فى الأنحاء التى بجوارها أحيانًا والنائية عنها أحيانًا أخرى.

ولم يغب على «النظام» وقد أراد لأمته دولة إسلامية متحدة ـ أثر العلم فى تكوين هذه الدولة وتوجيه شعوبها فينشر «نظامياته» فى تلك المدن الكبرى، وبعد قليل من تأسيسها صارت هى مناطق البثّ الرئيسية فى العالم الإسلامى.. وكان هو الطاقة المحرّكة لها بما أوتى من نفوذ ومال ورجاحة فكر وسعة إطلاع.

وكان مما ساعد على نمو هذه الحركة تقديمه العلماء وخاصة الفقراء ـ المتصوّفة ـ على غيرهم من سائر الطبقات والإغداق عليهم وفتحه المدارس لهم فى كل مكان يبرزون فيه، حتى صارت لهم منزلة فى نفوس الناس تفوق ما شهدوه فى سالف العصور، فكان منهم السفراء لإبلاغ الرسائل المتبادلة، وكان

منهم الوسطاء إذا حدث خلاف بين دار الخلافة وقصر السلطنة، وبينهما وملوك الأمم المجاورة.. وإليهم الرجوع فى مسائل المعاملات الشائكة وبمشورتهم يؤخذ الرأى القاطع فى تخريج الأحكام الشرعيّة التى تتصل بنظم الحكم وتقنينها.. أشبه بمجلس الدولة الذى نراه فى حواضر العالم المتمدن.

ولدينا من الأمثلة التى حصلت فى هذا العصر عدد كبير، فقد سَفَرَ ـ الماوردى ـ بين الخليفة وأمير بغداد[1]. وسفر الإمام القشيرى ـ عميد نظامية بغداد ـ إلى الخليفة القائم بأمر اللّه ولقى منه قبولاً وعقد له المجلس فى منازله المختصة به[2].

فن المناظرة في مجلس «النظام»:

وكان مجلسه ـ كما تحدّثنا الأخبار ـ يزدحم بالعلماء وطلبة العلم ورجال الدين على اختلاف درجاتهم ونزعاتهم، وكانت المناظرات فى المسائل العلمية والمجادلات فى المشكلات الدينية تجرى أمام «النظام» وتحت إشرافه، وقد كان يأنس لها ويفيد منها كما يستفيد ويسرّ منها الحاضرون فإذا لمسّ فى أحدهم نبوغًا «قدّمه على أقرانه»[3].

وقد بلغت مجالس المناظرة من البراعة فى المناقشة والحرية فى إبداء الرأى والإصغاء لسماع الدليل ما تسير عليه المجامع العلمية فى عواصم العالم المتحضر اليوم من جدل وحجاج وفق المنهج العلمى حتى صارت المناظرة علمًا له قواعده وآدابه ومؤلفاته، وحتى قيل فى ترجمة ـ الإمام رضى الدين النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥هـ: «إنه قد أحدث لعلم المناظرة ضبطًا وترتيبًا لم يكن قبله»[4].

ومن دلائل هذا الضبط ما وصل إلينا من حكايات بهذا الخصوص تدلنا على

---

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥، وآدم ميتز.

(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٤٣.

(٣) الذهبى ـ سير أعلام النبلاء ـ مجلد ١٢ ص ١٦.

(٤) القزوينى ـ آثار البلاد ص ٣١٧.

أن هذه المجالس كانت تعقد أحيانًا لسماع فكرة جديدة فيحضرها لفيف من مشاهير علماء الطوائف الأخرى، فيستمعون لصاحب النظرية الجديدة ويناقشونها، وقد يعاد عقد المجلس مرة ثانية ليستأنف مناقشته[1].

ومما يخطر على بال كل قارئ لسيرة النظام متتبع لأحداث عصره أنه لم يكن مخلصًا كل الإخلاص فى حركته العلمية هذه وإنما كان يبتغى من ورائها نصرًا لسيادته وفوزًا لسياسته.. لذلك لا نستطيع الجزم بأن الدافع الوحيد لعقد مثل تلك المجالس ـ مجالس الملوك والأمراء والوزراء ـ هو الدين أو العلم أو الأدب فحسب فإن الاعتزاز بكل واحد منها يومذاك دفعه لجذب العلماء ورجال الدين إلى حضور مجالسه إذ إن حضورهم يعدّ كسبًا يفخر به الساسة فى ذلك الحين، فهو فضلاً عن أنه أداة للشهرة الحسنة بين طبقات العامة يدل ضمنًا على تأييدهم للحكام ولشكل الحكم القائم الذى يسيرون بمقتضاه، لذلك امتنع ـ الباقلانى ـ من حضور مجلس الملك ـ فتاخسرو ـ حينما دعاه ليحضر مجلسه وينصر مذهبه قائلاً: «ليس غرض الملك من هذا إلاّ أن يقال أن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان خالصًا للّه لنهضت»[2].

وإذا علمنا أن تفسير الأشاعرة لقوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[3].

أن المراد بأولى الأمر ليس حكّام البلاد وسادتها وإنما هم أهل الفقه والدين والذين يعلمّون الناس معانى دينهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر[4].. لأدركنا أولاً كيف امتزج العلم بالدين فى السياسة وعرفنا ثانيًا لماذا عنى الحكّام برجال الدين والعلم.

عقيدة «النظام» الدينية:

والعقيدة مازالت من المصادر الثقافية المهمّة بقدر ما هى من المقوّمات

(١) ابن عساكر ـ التبيين ص ٩٣ ـ ٩٦، وابن عقيل: الفنون فى أوراق مختلفة من أجزائه الباقية.
(٢) المصدر السابق ص ١١٨، ١١٩.
(٣) سورة النساء ـ من الآية ٥٩.
(٤) المصدر السابق ص ١٢٦.

الشخصية البارزة، لأنها الأصل الذى تمتد إليه جذور ما يدعى بالأخلاق، والورد الذى ينبع منه ما يسمى بالمثل العليا، فهى الأساس لقواعد السلوك فضلاً عن الشعور الذى توحيه للنفس عند عمل الخير بالاطمئنان والهدوء.

و«نظام الملك» ـ كما عرفنا ـ ـ تفقّه على مذهب الشافعى[1].. وكان فى الأصول على مذهب الأشعرى حيث تربى فى أسرة متدينة ودرس على أساتذة من الشوافع الأشاعرة، وهو ـ كما سنعرف من رجال الحديث «والتشيّع فى المحدثين نادر»[2]، فلا مجال لدعوى تشيّعه وإن كان معتدلاً فى تسننه. ومن المدهش حقّا أن نجد بين رجال السير المحُدثين من يزعم أنه شيعى[3] على الرغم من شهرة ذلك وتضافر البراهين من أعمال «النظام» وأقواله عليه..

وربما كان دافع هذا الزعم ما قصّه «النظام» نفسه عن مهمّة السفراء ورسل الملوك، وكيف يتلمسون مواضع النفس ومواطن الضعف فى السلاطين والوزراء ليتخذوا منها وسيلة للتآمر عليهم، وكيف اضطرب خوفًا من السلطان «ألب أرسلان» حينما أخبره رسوله ـ أشتر العالم ـ بأن سفير خان ما وراء النهر ـ شمس الملك ـ قد ظنّ فيه التشيّع لوضعه الخاتم فى أصبع اليد اليمنى كما يفعل الشيعة، فبذل من أجل ذلك ثلاثين ألف دينار ذهبًا حتى لا يبلغ الخبر مسامع السلطان لأنه كان متعصبًا لمذهبه، وكثيرًا ما كان يردد: «وا أسفاه لو لم يكن وزيرى شافعيّا»، ثم تناقلت الكتب هذه القصة فظنّها بعضهم حجّة على تشيّعه الذى اضطر إلى كتمانه، وربما كان أيضًا فى زيارته للمشاهد الشيعيّة المقدسة فى إيران والعراق ما يوهم القائلين بتشيّعه. ولا نستطيع أن نفهم مدى اعتقاد «النظام» فى دينه، ورسوخه فى ضميره ما لم نتبين صورًا من أفعاله وتصرفاته.

قيل: إنه كان سخيًّا وفيّا زاهدًا عابدًا فقد أوثر عنه كثرة البذل والعطاء..

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٢، وابن كثير ـ البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٢٠.

(٢) طبقات السبكى جـ ٣ ص ٦٧ ـ ٧٢ ترجمة أبى عبد الله الحاكم.

(٣) أغابزرك ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة والأمين العاملى ـ أعيان الشيعة جـ١ ص ١٦٧ و جـ ٢ ص ٢٢٥ ـ ٢٤٧.

فكان يسأل الحوائج فى أثناء مجلسه ويجيب عنها وينعم بالأموال الطائلة والهبات الجزيلة[١]. وكان دائم الوضوء، ولم ينقطع عن تلاوة القرآن، وعند سماعه الأذان يترك ما بيده من أعمال ويقوم للصلاة[٢] وكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع[٣].

وما كان لأحد أن يصدق الباخرزى والحسينى والعماد الأصبهانى من مؤرخى دولة آل سلجوق فيما قالوه عنه من جود على الفقراء والمتصوّفة، وبذخ على العلماء والأدباء.. لولا ما نقرؤه ممن جاءوا بعد موت «النظام» واندثار السلاجقة بأجيال وما جاء على ألسنة غير الشافعية ممن لا يتهم بزلفى أو زيف مثل «أبو الوفاء بن عقيل» الحنبلى المتزمّت المعاصر «للنظام»، فقد روى أنه قال فى كتابه «الفنون»: «إن أيامه التى شاهدناها تربو على كل أيام سمعنا بها، وصدقنا بما رأيناه وإن كنّا قبل ذلك مستبعدين له، ناسبين ما ذكر فى التاريخ إلى نوع من تحسين الكذب فأبهرت العقول سيرته جودًا وكرمًا وعدلاً»[٤].

وقد ذهبت فى كرمه الأقاويل: حكى أن رزقه كان يجرى على اثنى عشر ألف إنسان من فقيه وغيره[٥]، وحكى أن ما يصرفه ينوف على ستمائة ألف مثقال ذهب غيره الذى ينفقه من خاصة أمواله ومحصولات غلاله[٦]. وكان إنفاقه على المتصوّفة خاصة لا يكاد يصدق حتى قيل: إنه أعطى بعض متنميهم فى مرات ثمانين ألف دينار، وذلك بسبب تعظيمه للصوفية[٧].

وقد جرّ عليه إنفاقه هذا مشكلات سياسية أدّت إلى الخلاف بينه وبين

---

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٧.

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٧٢.

(٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٤٠.

(٤) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٤٠، وابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١.

(٦) النهروانى ـ الأعلام ص ١٧٥.

(٧) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

السلطان «ملكشاه» سنعرض لها فى الباب الأخير من البحث. وكان يريد أن يكون السلطان جوّادًا مثله، يعدّ الولائم الضخمة للجيش، ويغدق على المعوزين والمحتاجين من الناس، لأن السخاء بنظره من فضائل الملوك.: لهذا نراه يشكو من تقتير السلطان، ويذكّره بولائم ـ طغرلبك ـ والقره خان ـ وينبّهه لاستياء الحاشية والجند منه لأنه لا يقيم لهم الموائد ويدعوهم إليها.

وكان لنسكه وتقواه كثيرًا ما يردد: كنت أتمنى أن يكون لى قرية ومسجدًا أخلو فيه لطاعة ربى[1] ـ وكان دائم الخشية من عقاب الآخرة حتى خطر له يومًا أن يدوّن خلاصة سيرته فى رقعة، يشهد فيها علماء عصره ثم يضعها معه، فلمّا وصلت إلى «أبى إسحق الشيرازى» كتب فيها ـ حسن خير الظلمة ـ فلم يشهد هذا التوقيع حتى بكى وقال: «ما كتب أحد من هؤلاء العظماء أصدق مما كتب أبو إسحق»[2].

وكان لثقته بنفسه وقوة إيمانه وعلى الرغم من احترامه الكبير لأعلام مجلسه فإنه يميل إلى الصرحاء منهم، لذلك نراه إذا دخل عليه «أبو على الفارمذى» الصوفى أجلسه مكانه وجلس بين يديه، وإذا قدم أبو القاسم القشيرى وأبو المعالى الجوينى قام لهما وأجلسهما إلى جنبه. ولمّا سئل فى ذلك قال: «إنهما يطريانى فيزيدنى كلامهما تيهًا... أمّا هو فيذكر لى عيوبى وظلمى فأرجع عن كثير مما أنا فيه»[3].

ولم يكن هذا فحسب فإنه لم يكتف بسماع ما يدور على ألسنة العلماء فى مجلسه، وإنما كان يزورهم فى بيوتهم أحيانًا ويذهب إلى المساجد أيام الجمع لأداء صلاتها والاستماع لوعظ خطبائها.. وهذا ما شجع بعضهم لأن يسمعه

---

(١) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ١٤، ١٥ من مستخلص شيفر.

(٣) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، والكامل ـ حوادث نفس العام.

من الوعظ والإرشاد ما يخاف التفوه به أمام غيره. وهذا أيضًا ما أغرى بعضهم لأن يؤلّف له رسالة صغيرة يبذل فيها من النصائح القصار مما لم يجسر به أحد لولا معرفته بسماحته ورضاه وتأييده.

وأمثلة ذلك كثيرة فقد ذهب إلى زيارة ـ أبى الحسن الداودى[1] ـ المحدّث المتصوّف وتواضع معه وقال له: عظنى. فما زاد على قوله: أيها الرجل إن الله سلّطك على عبيده فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم؟ فبكى بكاءً شديداً..

ولم يصل بغداد فى زيارته الأولى مع السلطان ملكشاه لها سنة ٤٨٠هـ حتى حضر جامع المهدى لأداء فريضة الجمعة واستمع لخطيبه ـ أبى« سعيد بن أبى عمامة»[2] ـ وكانت خطبته آية فى البلاغة، كما كانت عنيفة فى الوعظ شديدة فى النصيحة جريئة فى عرض واقع الأمور وتحمله المسئولية، بدأها بالحمد للّه والصلاة على نبيه ثم خاطبه بصدر الإسلام، وشرح له بصراحة منزلته من الرعيّة، وأنها ليست سوى منزلة الأجير الذى باع نفسه وأخذ ثمنها فهو أجير الأمة وإن كان وزير الدولة، وقد استأجره السلطان وبسط له فى السوط والسيف والقلم ومكّنه فى الدينار والدرهم لينوب عنه فى الدنيا والآخرة، فليس له من نهاره ما يتصرف فيه حسب اختياره، ولا له أن يصلى نفلاً أو يدخل معتكفًا، وإنما ليمضى الوقت كلّه فى مصالح الناس، لإقامة البذل وإفاضة العدل، لأن هذا فرض لازم وذلك فضل مستحب.. فإذا سئلت يوم القيامة ماذا صنعت فى البلاد والعباد أفتحسن الجواب؟ وقد اتخذت الأبواب والنواب والحجّاب فصدّوا القاصد، وردّوا الوافد، فاعمر قلبك كما عمّرت قصرك.. ثم يختم خطبته بآى الحشر، وما أن ينتهى منها حتى يجهز «النظام» فى البكاء، ويبكى بكاءً

(١) المنتظم جـ ٨ ص ٢٩١، وطبقات السبكى جـ ٣ ص ٢٢٩.

(٢) هو المعمر بن على بن المعمر ولد سنة ٤٢٩هـ وسمع الحديث، وجلّ وعظه حكايات السلف وكان له خاطر حاد، وذهن بغدادى، وكان يحاضر الخليفة المستظهر باللّه، توفى سنة ٥٠٦هـ(المنتظم جـ ٩ ص ١٧٣، وابن رجب ـ ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ١٣٢).

طويلاً.. ثم يأمر للخطيب بمائة دينار جزاء صراحته وجرأته، فيردّها على الوزير قائلاً: «إن الفقراء على بابك أكثر منهم على بابى»[1].

ومن الطريف أن يتلقى «النظام» موعظة ثانية من حنبلى آخر بل من أشدّ الحنابلة تعصبًا لمذهبه فيتقبلها بصدر رحب ويتوسط لصاحبها سنة ٤٧٤هـ، فيخلع عليه الخليفة المقتدى خلعة فاخرة ويمنحه لقب ـ شيخ الإسلام زين العلماء، وخلعة أخرى لابنه ـ عبد الهادى[2] ـ ذلك هو أبو إسماعيل الهروى الأنصارى[3] ـ أمّا موعظته فقد ضمّنها رسالة مختصرة يعظ فيها «النظام» وعظ المريدين ويرشده إرشاد السالكين، يوصيه فيها بالسعى لرعاية القلوب وألاّ يبيع دنياه بآخرته، إذ ليس فى الأولى سوى المتاعب والحسرات، وخلاص النفس بالعبادة وتذكّر ساعة الموت وعدم إطاعة هوى النفس، واعتبار العلم سلاحًا وطلبه عزة.. لأن المعرفة هى الحصن الحصين فى طلب الفضل والحذر من مكايد الأعداء.. ثم يطلب منه تجنّب الجاهل المغرور وعدم التحدّث بما لم يرو ولا يسمع وعدم النظر إلى عيوب الناس، لأن محاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين وألاّ يجعل قلبه مسرحًا للأوهام وألاّ يخَفْ من الدراويش.. لأن فى مصاحبة العلماء سعادة فى الدنيا والآخرة[4].

وما تقبّله لأمثال هذه الموعظات من غير علماء طائفته إلاّ بدافع إيمانه العميق، ونظرته الواسعة للدين، وأنه فضّل الإسلام على غيره من الأديان، وميّز الشافعى على غيره من المذاهب، وانتقى مذهب الأشعرى فى الأصول لمافيه من توسط واعتدال.

---

(١) انظر الملحق رقم ١٣ من البحث.

(٢) ابن رجب البغدادى ـ ذيل طبقات الحنابلة ص ٧٣.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن على من ذرية أبى أيوب الأنصارى، ولد سنة ٣٩٩هـ، وله مؤلفات منازل السائرين، وذمّ الكلام وأهله.. كان عنيفًا فى مناظرته لخصوم الحنابلة وقد اتهم بالتجسّم.. له مجالس مناظرة حضرها النظام إلى أن توفى بهراة سنة ٤٨١هـ (تذكرة الحفاظ جـ ٣ ص ٣٥٤، وابن رجب ـ ذيل طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٦٦، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٨٢).

(٤) انظر الملحق رقم ١٤ عن الذهبى باسم «النصيحة النظامية» الأدبى عبد الله الانصارى.

ولقارئ سيرته ورسائله أن يتساءل إذًا عن أشياء نسبت إليه: فهو يلبس الحرير ويلعب النرد ويكتب للسلطان فى كيفية إعداد موائد الشراب والخمر، وهو فوق ذلك وبعده متهم بالقتل والتعذيب.. وهذا يتنافى مع ورعه وتقواه، أجل.. إنه بشر، بل كلٌ منّا بشر، وقد نقع فى الخطأ فلا معصوم غيره تعالى.

أما ارتداء الحرير فقد كان يومذاك مدعاة لرفض شهادة لابسه أمام القضاء، وقد كان فى موقف قاضى القضاة ـ أبو بكر الشامى الشافعى[1] ـ من ردّ ـ المشطب الفرغانى[2] ـ لكونه يلبس الحرير.. فقال: «أتردّنى والسلطان والوزير نظام الملك يلبسانه، فأجابه: ولو شهدا لما قبلتهما». فى هذا الموقف ما يشعر بعدم قبول شهادة «النظام» فيما لو أراد الإدلاء بها فى مناسبة ما، وهو أمر له أهميته من ناحية تزكيته الدينية لمنصب الوزارة.

والذى يبدو أنه رأى فقيه متزمّت فى أحكام الدين كان متشددًا فى التزام مظاهر الزهد فى الحياة وترفها.. والوزارة ولاسيما السلطانية منها ـ بنظر النظام ـ أقرب إلى الحياة الدنيا وشئون السياسة والحكم منها إلى الغلّو فى الدين.. على أن «النظام» لم يأت باطلاً فيما ارتداه لأنه لم يكن يرى الزهد فى الحياة تقشفًا ونسكًا فى حلالها، وإعراضًا عن مباهجها وعزوفًا عن لذائذها ومتعها.

وأمّا لعبه الشطرنج فقد حكاه لنا بنفسه، وقصّ علينا كيف دخل رسول خان سمرقند وهو فى غرفته الخاصة يلعب الشطرنج مع نفر من خواصه، وكيف أذن له بعد أن أمر برفع الشطرنج من أمامه، وارتهن خاتم أحد جلسائه الذين غلبهم آنذاك[3].

---

(١) أبو بكر الشامى ـ هو محمد بن المظفر بن بكران الحموى ولد سنة ٤٠٠هـ. ولّى القضاء بعد الدامغانى، اختلف مع المقتدر ثم رضى عنه.. قارب التسعين ومات سنة ٤٨٤هـ (الذهبى ـ السير جـ ١٢ ص ٢٠).

(٢) الفرغانى ـ هو على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى.. توفى سنة ٥٩٣هـ.

(٣) سياستنامة ص ٧٣ ـ فصل ٢١ من الترجمة.

أجل.. قد يتساءل ذلك القارئ: كيف نعلّل لتلهى الوزير بالشطرنج، وهى لعبة لم يجزّ الفقهاء التسلى بها فضلاً عن المقامرة وهى حرام؟.. ولمّا رجعت إلى مصادر المسألة وجدت من الأئمة من يبيحها كالإمام الشافعى، لأنها بنظره من قبيل المران على الرماية وآداب السلاح التى جنّدها الرسول، ولأنها تساعد اللاعب على فنون الحرب وابتكار الخطط للتغلب على العدو. أمّا أئمة المذاهب الآخرون فقد اعتبروها من قبيل اللهو المحذور إذ لا فائدة منها تعود على اللاعب فى دينه ولا دنياه واستندوا فى ذلك على الحديث: «كل لهو ابن آدم حرام سوى الرماية والفروسية».

وأمّا مسألة الشراب فقد أفرد «النظام» لها فصلاً فى كتابه «السياسة» أوضح فيه كيفية عقد مجلسه وترتيب موائده وشرائط غلمانه ـ فمن المعروف أن الخلفاء الأمويين ومعظم العباسيين كانوا يتعاطونها ومن ثمّ تحرّج منهم ـ وهو قليل ـ كان «قد استغنى» بحلال النبيذ عن حرام الخمرة على حد تعبيرهم وبناء على فتوى بعض فقهاء الكوفة.. على أننا لم نعثر فى النصوص التى بين أيدينا ما ينبئنا بإعداد «النظام» مجلسًا للشراب والطرب شابه معظم وزراء تلكم العصور، أو بمشاركتة فى تلك المجالس السلطانية أو تعاطيه الخمر على الرغم من شيوع ذلك جميعه فى قصور الملوك والسلاطين، وعلى الرغم من فرض التقاليد الملكية لحضور الوزراء على موائدهم للمنادمة والمساهمة، وإنما وجدناه على خلاف ذلك.. إذا بادر لمقابلة السلطان، وكان فى مجلس شربه يأمر برفعه إذا عرف بمجيئه احترامًا له[1].

ووجدناه ينصح ولديه: فخر الملك ومؤيد الملك، فى وصاياه ورسائله لهما بعدم حضور أمثال تلك المجالس ويحذّرهما من تعاطى الخمر فضلاً عن الإدمان عليه[2].

(١) سبط الجوزى ـ مرآة الزمان ورقة ٨٦ ـ حوادث سنة ٤٧٧هـ.

(٢) انظر: ص ٤٧ من البحث ملحق رقم ٧، ٨، ٩.

ولعلّ آخر ما نتساءل عنه فى مدى إطاعته لتعاليم دينه وخضوعه لأوامرها ونواهيها، وهو آخر ما يؤاخذ عليه «النظام»، وربما كان آخر ما يؤاخذ به أيضًا، وهى حوادث القتل والتعذيب الثلاث التى اتهم بها فى بداية حياته السياسية وأثنائها والتى إن صحّت إدانته بها لمجرد الانتقام والمصلحة الذاتية، كانت شينًا فى تورعه.. وعيبًا فى تعبّده.. ونقصًا فى إيمانه.

قيل: إنه أوحى للسلطان ـ ألب أرسلان ـ بقتل «الكندرى» فكان أول حادث أزهق فيه روحًا بريئة ليصعد سلم المجد على جثمان صاحبها، وقيل إنه أشار على السلطان ملكشاه بقتل أخيه ـ قاورت ـ فكان هذا ثانى حادث دموى أراقه ليخضع إليه.. وقيل إنه هو الذى مهّد لقتل ـ كوهر خاتون ـ عمة السلطان المذكور بعد مصادرة خمسين ألف دينار منها.. وأخيرًا هو الذى اقترح على السلطان ـ بكحل أولاد عمه[1].

أمّا حادث الكندرى فقد عرفنا من قبل كيف قتل[2]، كما علمنا كيف انتهت حياة ـ قاورت ـ وأسباب مصيرها.. وأمّا كوهر خاتون هذه فقد قيل إن «النظام» استقرض منها تلك الأموال لحاجة الدولة إليها حينذاك فجاء لوداعها بمناسبة سفرها فتنمرت عليه وخرجت غاضبة إلى الرى[3] لتمضى إلى المباركية[4] تستنجدهم على قتال الوزير «نظام الملك»[5]. وليس خروجها على الدولة وإثارتها الفتنة، والحكم بعد لم يستتبّ للسلطان الجديد ملكشاه بثورات الطامعين فى العرش بالأمر الهين الذى ينبغى لمثل ـ النظام ـ السكوت عليه والصفح عن هؤلاء الثائرين الطامعين.

وليس الحكم على «النظام» أوله فى أمثال هذه الأحداث سهلاً يسيرًا إذا أريد

(١) الحسن بن الصبّاح ـ رسالته المرقمة ٦/ب، وغيره من المؤرخين.

(٢) ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص١٠٠.

(٣) السبط ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٦٧هـ ـ ورقة ١٥٤.

(٤) حصن بناه المبارك التركى أحد موالى بنى العباس وبه قوم من مواليها.
(انظر: معجم ياقوت ـ شرح القاموس فى مادة ـ برك).

(٥) ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠٠.

له أن يكون حكمًا عادلاً نزيهًا، لأن الحقيقة التاريخية هنا مركّبة وذات وجوه عديدة والحكم فيها بالنظر إلى وجه واحد عمل يجانب الحق، ويباعد بنا عن المنهج العلمى السليم، لذلك كان لزامًا علينا أن نشير إلى ناحيته النفسية فى ضوء ما توصلنا إليه من دراساته واختباراته وأسرته وبيئته لنستشف منها إن كان قد قام بتلك الأعمال انحرافًا فى سلوكه أو نقصًا فى مشاعره أو عاهة فى بدنه ولينكشف وجه الصواب لقارئ سيرته فى كل ذلك، أو أنه نتيجة رأى يعتقد بحكمته وسداده، ويثق بحقه وصوابه، ثم بوجوب تطبيقه.

نفسيته وخُلُقه:

قد يقال: إن «النظام» بدأ حياته السياسية المتناقضة التى تعبّر عن عقدة نفسية، ثم استمرت تلازم مواقفه الصارمة ضد خصومه وأعداء الدولة، إذ كانت نشأته الأولى دينية علمية ـ كما عرفنا ـ ومن الناحية المالية والاجتماعية كانت حياته متعثرة، فدينه وعلمه يمنعانه عن المحذورات ورغبته فى المال والمنصب يشجعانه على إباحة المحرمات. ومن هنا تأصلت فيه هذه المتناقضات من الإغراق فى الدين والإمعان فى القسوة.

وقد يقال: إن بين التكوين الجسمى لكل شخص وسلوكه فى الحياة العامة صلة وثيقة أثبتها علماء النفس وأقرّها الطب الحديث، حتى قالوا: إن لكل نقص فى الخَلق ما يساويه من شذوذ فى الخُلُق نتيجة مركّب النقص الذى أحدثه فى أعماق النفس، ثم أليس أنه بشر؟[1].

ونحن نؤيّد ما قيل فى المرتين محاولين الوصول إلى صورة تقريبية لنفس الوزير من خلال ما نسب له وقيل عنه، وانتهينا إليه من دراسته لأن المؤرخين له قد أهملوه كذلك من هذه الناحية، وقد يكون من غرور القول أو فضوله أن ندعى الدقة بما نتوصل إليه من تصوير لناحيته النفسية، إذ إننا نعجز كل العجز فى تفسير بعض الظواهر والأعراض التى تبدو من زملائنا وأهل بيتنا فكيف بمن

(١) أليس شاعرنا العربى «أبو ذؤيب» ـ يقول:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع

حالت بيننا وبينه تسعة قرون، ولم يبق لدينا عنه سوى بعض النصوص والآثار.. ما أحوجها إلى التحقيق والتمحيص و....

إن النصوص التى وردت إلينا عنه لا تثبت انحرافًا فى مزاج والديه أو مرضًا فى جسمهما.. وإنما ترشدنا إلى أن والده وجدّه كانا دهقانين وقد ورث أبوه الدهقنة ثم صار جابيًا فى أواخر عمر أبيه، وكلا العملين يحتاج إلى بسطة فى الجسم، ونشاط متواصل ولابد أن يكون قد ورث عنه جسمًا قويًا، وقامة مرهفة كما تدلنا على رعاية والده له وحدبه عليه، ولاسيما بعد وفاة والدته، فقد غمره بحنانه ورأفته وشفقته وعنى بدراسته وتوجيهه وتأهيله، وبقى صدى هذا وأثر ذاك ماثلين فى نفسه وبدنه فنشأ سويًا فى خُلقه، كما كان طبيعيًا فى خَلقه[1].. فلا عجب أن نراه حليمًا مع أعدائه كما نشهده وفيًا مع أصدقائه، فلم يذكر له التاريخ بادرة فى شر بدأ بها أحد معارفه أو بغضاء نشرها بين إخوانه وأصحابه، وإنما ذكر له، وأشاد بما ذكر من لطف بالمساكين، وعطف على الضعفاء، وتبجيل للعلماء، واحترام للكبراء.

وقد ورث ـ بعد ذلك ـ عن أصله الفارسى ـ كما يرثّ كل انسان عن أرومته.. مزاجًا مرحًا، وعقلاً مفكرًا، فكان رجل عقل قوى، ودأب متواصل، وجدّ مستمر، يمزجه بالدعابة والفكاهة أحيانًا... وكان ـ بهذا ـ داهية ذكيًا إلاّ أن دهاءه غلب ذكاءه وفى هذا يكمن سرّ بروزه فى الميدان السياسى إذ إن حدة الذكاء أحيانًا تؤدى بصاحبها إلى الشطط من جرّاء سوء الظنّ فى تصرفات الآخرين والقصاص منهم، وبالتالى إلى خلق الأعداء الكثيرين، وهو فى غنى عن دسائسهم..

ومن ناحية الذكاء أيضًا فقد كان راقيًا.. إلاّ أن غضبه غلب ذكاءه، وكثيرًا ما اهتاج غاضبًا فى الوقت الذى تستوجب قواعد الذكاء كتم غضبه وعدم الإفصاح عن دخيلة قلبه، وبهذا يتضح سبب سقوطه فى أخريات أيامه حيث

(١) غير أنّ بعض المراجع تذكر أنه كان مصابًا بداء ـ النقرس ـ فى المرحلة الأخيرة من عمره وربما كان من أسباب ذلك قلّة المشى والاعتماد على الركوب أو المحفّة التى أوقفها حينما رأى شاكيًا بيده عريضة، فطعنه وهو يقرؤها.. ولذلك سمّى بداء الملوك والوجهاء.

لم يستطع السيطرة على أعصابه أمام وفد السلطان «ملكشاه» الذى أتى إليه شاكيًا من تصرفات ابنه وتعيين أقاربه دون إذنٍ منه، فأعرب عمّا فى نفسه حتى أحسّ بخطئه وندم على ما قام به[1].

والذى يبدو لنا من هذا كله أن «النظام» لم يكن يحسّ بمنقصة فى نفسه أو يشعر بغضاضة أو ضعة فى جسمه أو نسبه.. وإنما كان على العكس من ذلك، يرى فى نفسه الكفاءة النادرة والمعرفة العالية والمحتد الكريم.. فكيف يمهد السبيل لمنافسيه أن يتقدموه وهم أقل منه ذكاءً وعلمًا؟!.. وكيف يرضى لخصومه أن يسبقوه وهم ـ بنظره ـ أقل خبرة بشئون الدولة وأضعف إيمانًا فى تحقيق أهدافها الدينية؟!.. ولكنه لا يرضى لنفسه ـ مع ذلك ـ أن يتآمر ويغتال من أجل أن يخلو له الجو، وهو الذى ينصح ابنه بأن لا يمكن للدنيا أن تفرغ من ذوى الكفاءات، فعليك أن تسعى للتفوق عليهم بالجدّ لا أن تخلوها بالقتل ـ لأن الإيقاع بالآخرين إيقاعٌ بالنفس[2].. ولا يرضى لنفسه ذلك أيضًا، وهو الذى يقول لسلطانه فى معرض الحديث عن البلاء والمرض: «إن لا خلاص منهما إلاّ بالعدل والرحمة».

لذلك نراه على رحمته ولينه فى الحكم وصفحه وعفوه عند الضرورة فإنه لا يتسامح أمام اثنين: الخارجين على الدين، والخارجين على الدولة.. كما لا يتورّع فى اتهام الخارجين على المركزيّة[3].. وللاستدلال على ذلك ما ذكره المؤرخون من أن السلطان أراد قتل الأسرى بعد قضائه على الأمير ـ قتلمش بن إسرائيل ـ فأشار عليه «النظام» بالصفح والغفران.. فعفا عنهم ومنحهم العطايا.. ولكثرة صفحه قالوا عنه: «وكان كثير الصفح عن المذنبين»[4].. ثم

(١) انظر: ص ٤٦٧، ٤٧١ من البحث.

(٢) الوصايا ص ٧٢.

(٣) كما فعل فى اتهام ـ يعقوب بن الليث الصفار ـ عند خروجه في سستان على الخلافة فزعم بأنه خدعه الدعاة فى بيعة الإسماعيلية. (سياستنامة ص٨ فصل ٣٠) وهى تهمة لا أساس لها فى المصادر المعتمدة (ابن الأثير ـ حوادث سنة ٢٦٢هـ، وابن خلكان جـ ٢ ص ٣١٦).. لأن الأسرة الفاطمية ومدينة المهدية لم تكونا موجودتين حينذاك.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٨٤ ـ ٨٦ ـ حوادث سنة ٤٨٤هـ.

عفا عن ـ الحسن بن الصبّاح ـ عندما أساء إليه ولم يطلب من السلطان نفيه وطرده، وكان آخر مثل ضربه لروح التسامح عمن يؤذيه خاصة دون ضرر عام يتصل بالدولة ودستورها أن تكون آخر كلمة فاه بها: «لا تقتلوا قاتلى فقد عفوت عنه» وتشهّد، ومات[1].

ولا نظنّ تعليلاً لموقفه هذا وذاك إلاّ أنه كان يحمل من الصفات إيمان المسلم الصحيح وحنكة السياسى الواقعى، وكان يصطنع الألفة بينهما كمن يوفّق بين الفلسفة والدين، وكان ذهنه وقّادًا سخيًا يسعفه بالحلول، ويختلق الحيلة من الشريعة السمحاء إذا لزم الأمر واضطر إلى أن يخالف الدين، على أن ما اقترفه فى ذلك قليل بالنسبة لما عرفناه فى أعمال الساسة العظام.

وبدت الأشعة ضعيفة من خلال أعماله هذه ثم أخذت تقوى مرسلة أضواءها على شخصيته وبدت ملامح هذه الشخصية تبرز واضحة متناسقة، وهو يتسلق مدارج المجد، بحيث أصبح من الممكن أن نستشف من ورائها حقيقة الرجل وما يختلج فى نفسه من نوايا، وما يرسم لتنفيذها من خطط، وكيف وجد دون غايته طريقًا وعرًا تحفّه الأشواك، وتعترضه العقبات، ووجد من خلفها سيلاً من الخصوم للدولة والمنافسين له يكيدون للقضاء عليه.. ووجد نفسه مضطرًا لأن يطيح بهؤلاء جميعًا وإن رضخوا واستسلموا بعد أن أخفقوا.. وأن يعزل من المناصب الكبيرة من لا يستحق العزل لتقديم أحد أبنائه وأصهاره عليه[2].. وربما خالجته مخافة اللّه فى بعض الأحايين فتسيل دموعه منهمرة عند سماعه لخطب الواعظين.. وقد ترغمه ظروفه السياسية فيمسح تلك الدموع ويجور على خلجات قلبه الذى يضطرب حنانًا، ويخفق حزنًا وألمًا فيغدو بعيدًا عن مشاهدة المأساة التى يمثّلها السيّاف بأمر من سلطانه إذا لم تسعفه عبقريته بحل سلمى يتحاشى به سفك الدماء، ولم يجد بدًا من سلوك هذا الدرب القاتم المتجهم بما تحيطه من متناقضات ومفارقات وموافقات وتشويه من خفايا وأسرار ومفاجآت،

(١) طبقات السبكى جـ ٣ ص ١٣٥ ـ ١٤٥.

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٢، وسبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٨٤هـ.

فكانت مجالاً فسيحًا لظنون الكتّاب وتكهنات الباحثين، كما سنقرؤه من اختلافهم فى صلته بالخيّام والصبّاح. . . ومن بعده فى علاقته بالسلطان ـ ألب أرسلان وملكشاه ـ وتفسير ما تخلّل هذه وتلك من أعمال.

ولا نخاله ـ بعد هذا وذاك ـ إلاّ رجل دولة من الطراز الأول وليس سياسيًا محترفًا يجرى مع الريح أينما هبّت ويسير مع النفع الشخصى حيثما ذهب. . فإننا من خلال سيرته وعباراته نسمع صوت رجل ذى عقيدة راسخة سار إلى الموت وهو يعلم أن عداءه للإسماعيلية سيؤدى بحياته، ولكن النصر ـ مع ذلك ـ سيكون لآرائه ومعتقداته بعد وفاته[1]. . إذ هو القائل: «وسيتذكرون أقوالى حينما يبدأ الباطنية يرمون الرجل العظيم فى الحفرة وتتكشف أسرارهم، وحينئذٍ سترتد الألسنة صدى أقوالى على قرع الطبول، وفى زمن المحنة والضيق سيعرف السلطان بأنى كنت على صواب».

* * *

(١) بارتولد ـ تركستان ص ٣٥.

obeikandl.com